(۹۳) سورة الضحى مكية وآياتها إحدى عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والضحى ، والليل إذا سجى ﴾ لأهل التفسير فى قوله (والضحى) وجهان : (أحدهما) أن المراد بالضحى وقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى شعاعها (وثانيها) الضحى هو النهار كله بدليل أنه جعل فى مقابلة الليل كله .

وأما قوله (والليل إذا سجى) فذكر أهل اللغة فى (سجى) ثلاثة أوجه متقاربة . سكن وأظلم وغطى (أما الأول) فقال أبو عبيد والمبرد والزجاج : سجى أى سكن يقال ليلة ساجية أى ساكنة الريح ، وعين ساجية أى فاترة الطرف . وسجى البحر إذا سكنت أمواجه ، وقال فى الدعاء :

يا مالك البحر إذا البحر سجى

(وأما الثانى) وهو تفسير سجى بأظلم . فقال الفراء : سجى أى أظلم وركد فى طوله .

(وأما الثالث) وهو تفسير سجى بغطى ، فقال الأصمعى وابن الأعرابى سجى الليل تغطيته النهار ، مثل مايسجى الرجل بالثوب ، واعلم أن أقوال المفسرين غير خارجة عن هذه الوجوه الثلاثة فقال ابن عباس : غطى الدنيا بالظلمة ، وقال الحسن : ألبس الناس ظلامه ، وقال ابن عباس فى رواية سعيد بن جبير : إذا أقبل الليل غطى كل شىء ، وقال مجاهد وقتادة والسدى وابن زيد : سكن بالناس ولسكونه معنيان (أحدهما) سكون الناس فنسب إليه كما يقال ليل نائم ونهار صائم (والثانى) هو أن سكونه عبارة عن استقرار ظلامه واستوائه فلا يزداد بعد ذلك ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما الحكمة فى أنه تعالى فى السورة الماضية قدم ذكر الليل ، وفى هذه السورة أخره ؟ قلنا : فيه وجوه (أحدها) أن بالليل والنهار ينتظم مصالح المكلفين ، والليل له فضيلة السبق لقوله (وجعل الظلمات والنور) وللنهار فضيلة النور ، بل الليل كالدنيا والنهار كالآخرة ، فلما كان لكل واحد فضيلة ليست للآخر ، لاجرم قدم هذا على ذاك تارة وذاك ، على هذا أخرى

ونظيره أنه تعالى قدم السجود على الركوع في قوله (واسجد واركعي) ثم قدم الركوع على السجود في قوله (اركعوا واسجدوا) (وثانيها) أنه تعالى قدم الليل على النهار في سورة أبي بكر لأن أبا بكر سبقه كفر ، وههنا قدم الضحى لأن الرسول عليه الصلاة والسلام ما سبقه ذنب (وثالثها) سورة والليل سورة أبي بكر ، وسورة الضحى سورة محمد عليه الصلاة والسلام ثم ما جعل بينهما واسطة ليعلم أنه لا واسطة بين محمد وأبي بكر ، فإذا ذكرت الليل أولا وهو أبو بكر ، ثم صعدت وجدت بعده النهار وهو محمد ، وإن ذكرت والضحى أولا وهو محمد ، ثم نزلت وجدت بعده ، والليل وهو أبو بكر ، ليعلم أنه لا واسطة بينهما .

﴿السؤال الثاني﴾ ما الحكمة ههنا في الحلف بالضحى والليل فقط ؟ (والجواب) لوجوه (أحدها) كأنه تعالى يقول الزمان ساعة ، فساعة ساعة ليل ، وساعة نهار ، ثم يزداد فمرة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار ، ومرة بالعكس فلا تكون الزيادة لهوى ولا النقصان لقلى . بل للحكمة ، كذا الرسالة وإنزال الوحي بحسب المصالح فمرة إنزال ومرة حبس ، فلا كان الإنزال عن هوى ، ولا كان الحبس عن قلى (وثانيها) أن العالم لا يؤثر كلامه حتى يعمل به ، فلما أمر الله تعالى بأن البينة على المدعي واليمين على من أنكر ، لم يكن بد من أن يعمل به ، فالكفار لما ادعوا أن ربه ودعه وقلاه ، قال هاتوا الحجة فعجزوا فلزمه اليمين بأنه ماودعه ربه وما قلاه (وثانيها) كأنه تعالى يقول : انظروا إلى جوار الليل مع النهار لا يسلم أحدهما عن الآخر بل الليل تارة يغلب وتارة يغلب فكيف تطمع أن تسلم على الخلق .

﴿السؤال الثالث﴾ لم خص وقت الضحى بالذكر ؟ (الجواب) فيه وجوه (أحدها) أنه وقت اجتماع الناس وكمال الأنس بعد الاستيحاش في زمان الليل ، فبشروه أن بعد استيحاشك بسبب احتباس الوحي يظهر ضحى نزول الوحي (وثانيها) أنها الساعة التي كلم فيها موسى ربه ، وألقى فيها السحرة سجداً ، فاكتسى الزمان صفة الفضيلة لكونه ظرفاً ، فكيف فاعل الطاعة ! وأفاد أيضاً أن الذي أكرم موسى لا يدع إكرامك ، والذي قلب قلوب السحرة حتى سجدوا يقلب قلوب أعدائك .

﴿السؤال الرابع﴾ ما السبب في أنه ذكر الضحى وهو ساعة من النهار ، وذكر الليل بكليته ؟ (الجواب) فيه وجوه (أحدها) أنه إشارة إلى أن ساعة من النهار توازي جميع الليل كما أن محمداً إذا وزن يوازي جميع الأنبياء (والثاني) أن النهار وقت السرور والراحة ، والليل وقت الوحشة والغم فهو إشارة إلى أن هموم الدنيا أدوم من سرورها ، فان الضحى ساعة والليل كذا ساعات ، يروى أن الله تعالى لما خلق العرش أظلت غمامة سوداء عن يساره ، ونادت ماذا أمطر ؟ فأجيبت أن أمطري الهموم والأحزان مائة سنة ، ثم انكشفت فأمرت مرة أخرى بذلك وهكذا إلى تمام ثلاثمائة سنة ، ثم بعد ذلك أظلت عن يمين العرش غمامة بيضاء ونادت : ماذا أمطر ؟ فأجيبت أن أمطري السرور ساعة ، فلهذا السبب ترى الغموم والأحزان دائمة ، والسرور قليلا

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾

ونادراً (وثالثها) أن وقت الضحى وقت حركة الناس وتعارفهم فصارت نظير وقت الحشر ، والليل إذا سكن نظير سكون الناس فى ظلمة القبور ، فكلاهما حكمة ونعمة لكن الفضيلة للحياة على الموت ، ولما بعد الموت على ماقبله ، فلهذا السبب قدم ذكر الضحى على ذكر الليل (ورابعها) ذكروا الضحى حتى لا يحصل اليأس من روحه ، ثم عقبه بالليل حتى لا يحصل الأمن من مكره .

﴿ السؤال الخامس ﴾ هل أحد من المذكرين فسر الضحى بوجه محمد والليل بشعره ؟ (والجواب) نعم ولا استبعاد فيه ومنهم من زاد عليه فقال : والضحى ذكور أهل بيته ، والليل إناثهم ، ويحتمل الضحى رسالته والليل زمان احتباس الوحى ، لأن فى حال النزول حصل الاستئناس وفى زمن الاحتباس حصل الاستيحاش ، ويحتمل والضحى نور علمه الذى به يعرف المستور من الغيوب : والليل عفوه الذى به يستر جميع العيوب . ويحتمل أن الضحى إقبال الإسلام بعد أن كان غريباً والليل إشارة إلى أنه سيعود غريباً ، ويحتمل والضحى كمال العقل ، والليل حال الموت ، ويحتمل أقسم بعلانيتك التى لا يرى عليها الخلق عيباً ، وبسرك الذى لا يعلم عليه عالم الغيب عيباً

قوله تعالى : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أبو عبيدة والمبرد : ودعك من التوديع كما يودع المفارق ، وقرىء بالتخفيف أى ماتركك ، والتوديع مبالغة فى الوداع ، لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ فى تركك والقلى البغض . يقال قلاه يقليه قلى ومقلية إذا أبغضه ، قال الفراء : يريد وما قلاك ، وفى حذف الكاف وجوه (أحدها) حذفت الكاف اكتفاء بالكاف الأولى فى ودعك ، ولأن رؤس الآيات بالياء ، فأوجب اتفاق الفواصل حذف الكاف (وثانيها) فائدة الإطلاق أنه ما قلاك ولا [ملا] أحد من أصحابك . ولا أحداً ممن أحبك إلى قيام القيامة ، تقريراً لقوله «المرء مع من أحب» .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال المفسرون أبطأ جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم . فقال المشركون قد قلاه الله وودعه ، فأنزل الله تعالى عليه هذه الآية ، وقال السدى : أبطأ عليه أربعين ليلة فشكا ذلك إلى خديجة ، فقالت لعل ربك نسيك أو قلاك ، وقيل إن أم جميل امرأة أبى لهب قالت له : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، وروى عن الحسن أنه قال أبطأ على الرسول صلى الله عليه وسلم الوحى ، فقال لخديجة «إن ربى ودعنى وقلانى ، يشكو إليها ، فقالت كلا والذى بعثك بالحق ما ابتدأك الله بهذه الكرامة إلا وهو يريد أن يتمها لك» فنزل (ما ودعك ربك وما قلى) وطعن الأصوليون فى هذه الرواية ، وقالوا أنه لا يليق بالرسول ﷺ أن يظن أن الله تعالى ودعه وقلاه ، بل يعلم أن عزل النبى عن النبوة غير جائز فى حكمة الله تعالى ، ويعلم أن نزول الوحى يكون بحسب المصلحة ، وربما كان الصلاح تأخيره ، وربما كان خلاف ذلك ، فثبت أن هذا

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾

الكلام غير لائق بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم إن صح ذلك يحمل على أنه كان مقصوده عليه الصلاة والسلام أن يجربها ليعرف قدر علمها ، أو ليعرف الناس قدر علمها ، واختلفوا فى قدر مدة انقطاع الوحى ، فقال ابن جريج اثنا عشر يوماً ، وقال الكلبى خمسة عشر يوماً ، وقال ابن عباس خمسة وعشرون يوماً ، وقال السدى ومقاتل أربعون يوماً ، واختلفو فى سبب احتباس جبريل عليه السلام ، فذكر أكثر المفسرين أن اليهود سألت رسول الله ﷺ عن الروح وذى القرنين وأصحاب الكهف ، فقال « سأخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله » فاحتبس عنه الوحى ، وقال ابن زيد : السبب فيه كون جرو فى بيته للحسن والحسين ، فلما نزل جبريل عليه السلام ، عاتبه رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال « أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة » وقال جندب بن سفيان : رمى النبى عليه الصلاة بحجر فى إصبعه ، فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

فأبطأ عنه الوحى ، وروى أنه كان فيهم من لا يقلم الأظفار وههنا سؤالان .

﴿ السؤال الأول ﴾ الروايات التى ذكرتم تدل على أن احتباس الوحى كان عن قلى (قلنا) أقصى ما فى الباب أن ذلك كان تركا للأفضل والأولى ، وصاحبه لا يكون ممقوتاً ولا مبغضاً ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال لجبريل « ما جئتنى حتى اشتقت إليك ، فقال جبريل : كنت إليك أشوق ولكنى عبداً مأمور » وتلا (وما نتنزل إلا بأمر ربك) .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف يحسن من السلطان أن يقول لأعظم الخلق قربة عنده : إنى لا أبغضك تشريفاً له ؟ (الجواب) أن ذلك لا يحسن ابتداء ، لكن الأعداء إذا ألقوا فى الألسنة أن السلطان يبغضه ، ثم تأسف ذلك المقرب فلا لفظ أقرب إلى تشريفه من أن يقول له : إنى لا أبغضك ولا أدعك ، وسوف ترى منزلتك عندى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الواقعة تدل على أن القرآن من عند الله ، إذ لو كان من عنده لما امتنع .

قوله تعالى : ﴿ والآخرة خير لك من الأولى ﴾

واعلم أن فى اتصاله بما تقدم وجوهاً (أحدها) أن يكون المعنى أن انقطاع الوحى لا يجوز أن يكون لأنه عزل عن النبوة ، بل أقصى ما فى الباب أن يكون ذلك لأنه حصل الاستغناء عن الرسالة ، وذلك أمارة الموت فكأنه يقال انقطاع الوحى متى حصل دل على الموت ، لكن الموت خير لك . فإن مالك عند الله فى الآخرة خير وأفضل مما لك فى الدنيا (وثانيها) لما نزل (ماودعك ربك) حصل له بهذا تشريف عظيم ، فكأنه استعظم هذا التشريف فقيل له (وللآخرة خير لك من الأولى أى هذا التشريف وإن كان عظيما إلا أن مالك عند الله فى الآخرة خير وأعظم (وثالثها) ما يخطر

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾

ببالى ، وهو أن يكون المعنى وللأحوال الآتية خير لك من الماضية كأنه تعالى وعده بأنه سيزيده كل يوم عزاً إلى عز ، ومنصباً إلى منصب ، فيقول : لاتظن أنى قليتك بل تكون كل يوم يأتى فإنى أزيدك منصباً وجلالا ، وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ بأى طريق يعرف أن الآخرة كانت له خيراً من الأولى ؟ (الجواب) لوجوه (أحدها) كأنه تعالى يقول له إنك فى الدنيا على خير لأنك تفعل فيها ماتريد ، ولكن الآخرة خير لك لأنا نفعل فيها ما نريد (وثانيها) الآخرة خير لك يجتمع عندك أمتك إذ الأمة له كالأولاد قال تعالى (وأزواجه أمهاتهم) وهو أب لهم ، وأمته فى الجنة فيكون كأن أولاده فى الجنة ، ثم سمى الولد قرة أعين ، حيث حكى عنهم (هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) (وثالثها) الآخرة خير لك لأنك اشتريتها ، أما هذه ليست لك ، فعلى تقدير أن لو كانت الآخرة أقل من الدنيا لكانت الآخرة خيراً لك ، لأن مملوكك خير لك مما لا يكون مملوكا لك ، فكيف ولا نسبة للآخرة إلى الدنيا فى الفضل (ورابعها) الآخرة خير لك من الأولى لأن فى الدنيا الكفار يطعنون فيك أما فى الآخرة فأجعل أمتك شهداء على الأمم ، وأجعلك شهيداً على الأنبياء ، ثم أجعل ذاتى شهيداً لك كما قال (وكفى بالله شهيداً محمد رسول الله) (وخامسها) أن خيرات الدنيا قليلة مشوبة منقطعة ، ولذات الآخرة كثيرة خالصة دائمة .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قال (وللآخرة خير لك) ولم يقل خير لكم ؟ (الجواب) لأنه كان فى جماعته من كانت الآخرة شراً له ، فلو أنه سبحانه عمم لكان كذباً ، ولو خصص المطيعين بالذكر لافتضح المذنبون والمنافقون . ولهذا السبب قال موسى عليه السلام (كلا إن معى ربى سيهدين) وأما محمد ﷺ فالذى كان معه لما كان من أهل السعادة قطعاً ، لاجرم قال (إن الله معنا) إذ لم يكن ثم إلا نبى وصديق ، وروى أن موسى عليه السلام خرج للاستسقاء ، ومعه الألوف ثلاثة أيام فلم يجدوا الإجابة ، فسأل موسى عليه السلام عن السبب الموجب لعدم الإجابة . فقال : لا أجيبكم مادام معكم ساع بالنميمة ، فسأل موسى من هو ؟ فقال : [إنى] أبغضه فكيف أعمل عمله ، فما مضت مدة قليلة حتى نزل الوحى بأن ذلك النمام قدمات ، وهذه جنازته فى مصلى ، كذا فذهب موسى عليه السلام إلى تلك المصلى ، فإذا فيها سبعون من الجنائز ، فهذا ستره على أعدائه فكيف على أوليائه . ثم تأمل فإن فيه دقيقة لطيفة ، وهى أنه عليه السلام قال «لولا شيوخ ركع» وفيه إشارة إلى زيادة فضيلة هذه الأمة ، فإنه تعالى كان يرد الألوف لمذنب واحد ، وههنا يرحم المذنبين لمطيع واحد .

قوله تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ واعلم اتصاله بما تقدم من وجهين (الأول) هو أنه تعالى لما بين أن الآخرة (خير له من الأولى) ولكنه لم يبين أن ذلك التفاوت إلى أى حد

يكون . فبين بهذه الآية مقدار ذلك التفاوت ، وهو أنه ينتهي إلى غاية ما يتمناه الرسول ويرتضيه (الوجه الثاني) كأنه تعالى لما قال (وللآخرة خير لك من الأولى) فقيل ولم قلت إن الأمر كذلك ، فقال لأنه يعطيه كل ما يريده وذلك مما لا تتسع الدنيا له ، فثبت أن الآخرة خير له من الأولى ، واعلم أنه إن حملنا هذا الوعد على الآخرة فقد يمكن حمله على المنافع ، وقد يمكن حمله على التعظيم ، أما المنافع ، فقال ابن عباس : ألف قصر في الجنة من لؤلؤ أبيض ترابه المسك وفيها ما يليق بها ، وأما التعظيم فالمروى عن علي بن أبي طالب عليه السلام وابن عباس ، أن هذا هو الشفاعة في الأمة ، يروى أنه عليه السلام لما نزلت هذه الآية قال إذاً لا أرضى وواحد من أمتي في النار ، واعلم أن الحمل على الشفاعة متعين ، ويدل عليه وجوه (أحدها) أنه تعالى أمره في الدنيا بالاستغفار فقال (استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) فأمره بالاستغفار والاستغفار عبارة عن طلب المغفرة ، ومن طلب شيئاً فلا شك أنه لا يريد الرد ولا يرضى به وإنما يرضى بالإجابة ، وإذا ثبت أن الذي يرضاه الرسول صلى الله عليه وسلم هو الإجابة لا الرد ، ودلت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه كل ما يرتضيه . علمنا أن هذه الآية دالة على الشفاعة في حق المذنبين (والثاني) وهو أن مقدمة الآية مناسبة لذلك كأنه تعالى يقول لا أودعك ولا أبغضك بل لا أغضب على أحد من أصحابك وأتباعك وأشياعك طلباً لمرضاتك وتطييباً لقلبك ، فهذا التفسير أوفق لمقدمة الآية (والثالث) الأحاديث الكثيرة الواردة في الشفاعة دالة على أن رضا الرسول عليه الصلاة والسلام في العفو عن المذنبين ، وهذه الآية دلت على أنه تعالى يفعل كل ما يرضاه الرسول فتحصل من مجموع الآية والخبر حصول الشفاعة ، وعن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال : رضاء جدي أن لا يدخل النار موحد ، وعن الباقر ، أهل القرآن يقولون : أرجى آية قوله (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم) وإنا أهل البيت نقول أرجى آية قوله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) والله إنها الشفاعة ليعطاها في أهل لا إله إلا الله حتى يقول رضيت ، هذا كله إذا حملنا الآية على أحوال الآخرة ، أما لو حملنا هذا الوعد على أحوال الدنيا فهو إشارة إلى ما أعطاه الله تعالى من الظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجاً ، والغلبة على قريظة والنضير وإجلائهم وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب ، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن ، و[ما] هدم بأيديهم من ممالك الجبابرة ، وأنهبهم من كنوز الأكاسرة ، وما قذف في أهل الشرق والغرب من الرعب وتهييب الإسلام وفشو الدعوة ، واعلم أن الأولى حمل الآية على خيرات الدنيا والآخرة ، وههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ لم يقل يعطيكم مع أن هذه السعادات حصلت للمؤمنين أيضاً ؟ (الجواب) لوجوه : (أحدها) أنه المقصود وهم أتباع (وثانيها) أني إذا أكرمت أصحابك فذاك في الحقيقة إكرام لك ، لأني أعلم أنك بلغت في الشفقة عليهم إلى حيث تفرح بإكرامهم فوق

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾

ما تفرح بإكرام نفسك ، ومن ذلك حيث تقول الأنبياء : نفسي نفسي ، أى أبدأ بجزائى وثوابى قبل أمتى ، لأن طاعتى كانت قبل طاعة أمتى ، وأنت تقول : أمتى أمتى ، أى أبدأ بهم ، فإن سرورى أن أراهم فائزين بثوابهم (وثالثها) أنك عاملتنى معاملة حسنة ، فإنهم حين شجوا وجهك ، قلت «اللهم اهدقومى فإنهم لا يعلمون» وحين شغلوك يوم الخندق عن الصلاة ، قلت « اللهم املأ بطونهم ناراً » فتحملت الشجة الحاصلة فى وجه جسدك ، وما تحملت الشجة الحاصلة فى وجه دينك ، فإن وجه الدين هو الصلاة ، فرجحت حقى على حقك ، لاجرم فضلتك ، فقلت من ترك الصلاة سنين ، أو حبس غيره عن الصلاة سنين لا أكفره ، ومن آذى شعرة من شعراتك ، أو جزء من نعلك أكفره .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الفائدة فى قوله (ولسوف) ولم لم يقل : وسيعطيك ربك ؟ (الجواب) فيه فوائد (إحداها) أنه يدل على أنه ما قرب أجله ، بل يعيش بعد ذلك زماناً (وثانيها) أن المشركين لما قالوا : ودعه ربه وقلاه فالله تعالى رد عليهم بعين تلك اللفظة ، فقال (ما ودعك ربك وما قلى) ثم قال المشركون : سوف يموت محمد ، فرد الله عليهم ذلك بهذه اللفظة فقال (ولسوف يعطيك ربك فترضى) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ كيف يقول الله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ؟ (الجواب) هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام جبريل عليه السلام معه ، لأنه كان شديد الاشتياق إليه وإلى كلامه كما ذكرنا ، فأراد الله تعالى أن يكون هو المخاطب له بهذه البشارات .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما هذه اللام الداخلة على سوف ؟ (الجواب) قال صاحب الكشاف هى لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة ، والمبتدأ محذوف تقديره : ولأنت سوف يعطيك ربك والدليل على ما قلنا أنها إما أن تكون لام القسم ، أو لام الابتداء ، ولام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد ، فبقى أن تكون لام ابتداء ، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر ، فلا بد من تقدير مبتدأ وخبر ، وأن يكون أصله : ولأنت سوف يعطيك ، فإن قيل ما معنى الجمع بين حرفى التوكيد والتأخير ؟ قلنا معناه : أن العطاء كائن لا محالة ، وإن تأخر لما فى التأخير من المصلحة .

قوله تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن اتصاله بما تقدم هو أنه تعالى يقول (ألم يجدك يتيما) فقال الرسول بلى يارب ، فيقول ، انظر [أ] كانت طاعاتك فى ذلك الوقت أكرم أم الساعة ؟ فلابد من أن يقال بل الساعة فيقول الله : حين كنت صبياً ضعيفاً ما تركناك بل ربيناك ورقيناك إلى حيث صرت مشرفاً على

شرفات العرش وقلنا لك ، لولاك ما خلقنا الأفلاك ، أتظن أنا بعد هذه الحالة نهجرك ونتركك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (ألم يجدك) من الوجود الذي بمعنى العلم ، والمنصوبان مفعولا وجد والوجود من الله ، والمعنى ألم يعلمك الله يتيما فآوى ، وذكروا في تفسير اليتيم أمرين (الأول) أن عبد الله بن عبد المطلب فيما ذكره أهل الأخبار توفي وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به ، ثم ولد رسول الله فكان مع جده عبد المطلب ومع أمه آمنة ، فهلكت أمه آمنة وهو ابن ست سنين فكان مع جده ، ثم هلك جده بعد أمه بسنتين ورسول الله ابن ثمان سنين . وكان عبد المطلب يوصي أبا طالب به لأن عبد الله وأبا طالب كانا من أم واحدة ، فكان أبو طالب هو الذي يكفل رسول الله بعد جده إلى أن بعثه الله للنبوة ، فقام بنصرته مدة مديدة ، ثم توفي أبو طالب بعد ذلك فلم يظهر على رسول الله يتم البتة فأذكره الله تعالى هذه النعمة ، روي أنه قال أبو طالب يوماً لأخيه العباس : ألا أخبرك عن محمد بما رأيت منه ؟ فقال بلى فقال إني ضممته إلى فكيف لا أفارقه ساعة من ليل ولا نهار ، ولا آتمن عليه أحداً حتى أني كنت أنومه في فراشي ، فأمرته ليلة أن يخلع ثيابه وينام معي ، فرأيت الكراهة في وجهه لكنه كره أن يخالفني ، وقال : ياعماه اصرف بوجهك عني حتى أخلع ثيابي إذ لا ينبغي لأحد أن ينظر إلى جسدي ، فتعجبت من قوله وصرفت بصري حتى دخل الفراش فلما دخلت معه الفراش إذا بيني وبينه ثوب والله ما أدخلته فراشي فإذا هو في غاية اللين وطيب الرائحة كأنه غمس في المسك ، فجهدت لأنظر إلى جسده فما كنت أرى شيئاً وكثيراً ما كنت أفتقده من فراشي فإذا قمت لأطلبه ناداني ها أنا ياعم فأرجع ، ولقد كنت كثيراً ما أسمع منه كلاماً يعجبني وذلك عند مضي الليل وكنا لانسمي على الطعام والشراب ولا نحمده بعده ، وكان يقول في أول الطعام : بسم الله الأحد . فإذا فرغ من طعامه قال : الحمد لله ، فتعجبت منه ، ثم لم أر منه كذبة ولا ضحكا ولا جاهلية ولا وقف مع صبيان يلعبون .

واعلم أن العجائب المروية في حقه من حديث بحيرى الراهب وغيره مشهورة .

﴿ التفسير الثاني لليتيم ﴾ أنه من قولهم درة يتيمة ، والمعنى ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فآواك ؟ أي جعل لك من تأوي إليه وهو أبو طالب ، وقرىء فأوى وهو على معنيين : إما من أواه بمعنى آواه ، وإما من أوى له إذا رحمه ، وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ كيف يحسن من الجود أن يمن بنعمة ، فيقول (ألم يجدك يتيما فآوى) ؟ والذي يؤكد هذا السؤال أن الله تعالى حكى عن فرعون أنه قال (ألم نربك فينا وليداً) في معرض الذم لفرعون ، فما كان مذموماً من فرعون كيف يحسن من الله ؟ (الجواب) أن ذلك يحسن إذا قصد بذلك أن يقوي قلبه ويعده بدوام النعمة ، وبهذا يظهر الفرق بين هذا الامتنان وبين امتنان فرعون ، لأن امتنان فرعون محبط ، لأن الغرض فما بالك لا تخدمني ، وامتنان الله بزيادة نعمه ، كأنه يقول : مالك تقطع عني رجاءك ألست شرعت في تربيتك ، أتظنني تاركا لما صنعت ، بل لا بد

وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾

وأن أتمم عليك وعلى أمتك النعمة ،كما قال (ولأتم نعمتى عليكم) أما علمت أن الحامل التى تسقط الولد قبل التمام معيبة ترد ، ولو أسقطت أو الرجل أسقط عنها بعلاج تجب الغرة وتستحق الذم ، فكيف يحسن ذلك من الحى القيوم ، فما أعظم الفرق بين مان هو الله ، وبين مان هو فرعون ، ونظيره ما قاله بعضهم (ثلاثة رابعهم كلبهم) فى تلك الأمة ، وفى أمة محمد (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) فشتان بين أمة رابعهم كلبهم ، وبين أمة رابعهم ربهم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أنه تعالى من عليه بثلاثة أشياء ، ثم أمره بأن يذكر نعمة ربه ، فما وجه المناسبة بين هذه الأشياء ؟ (الجواب) وجه المناسبة أن نقول قضاء الدين واجب ، ثم الدين نوعان مالى وإنعامى (والثانى) أقوى وجوباً ، لأن المالى قد يسقط بالإبراء (والثانى) يتأكد بالإبراء ، والمالى يقضى مرة فينجو الإنسان منه (والثانى) يجب عليك قضاؤه طول عمرك ، ثم إذا تعذر قضاء النعمة القليلة من منعم هو مملوك ، فكيف حال النعمة العظيمة من المنعم العظيم ، فكأن العبد يقول : إلهى أخرجتنى من العدم إلى الوجود بشراً سوياً ، طاهر الظاهر نجس الباطن ، بشارة منك أنك تستر على ذنوبى بستر عفوك ،كما سترت نجاستى بالجلد الظاهر ، فكيف يمكننى قضاء نعمتك التى لا حد لها ولا حصر ؟ فيقول تعالى الطريق إلى ذلك أن تفعل فى حق عبيدى ما فعلته فى حقك ، كنت يتيما فآويتك فافعل فى حق الأيتام ذلك ، وكنت ضالا فهديك فافعل فى حق عبيدى ذلك ، وكنت (عائلا) فأغنيتك فافعل فى حق عبيدى ذلك ثم إن فعلت كل ذلك فاعلم أنك إنما فعلتها بتوفيقى لك ولطفى وإرشادى ، فكن أبداً ذاكراً لهذه النعم والألطاف .

أما قوله تعالى ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ فاعلم أن بعض الناس ذهب إلى أنه كان كافراً فى أول الأمر ، ثم هداه الله وجعله نبياً ، قال الكلبى (وجدك ضالا) يعنى كافراً فى قوم ضلال فهداك للتوحيد ، وقال السدى كان على دين قومه أربعين سنة ، وقال مجاهد (وجدك ضالا) عن الهدى لدينه واحتجوا على ذلك بآيات أخر منها قوله (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) وقوله (وإن كنت من قبله لمن الغافلين) وقوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) فهذا يقتضى صحة ذلك منه ، وإذا دلت هذه الآية على الصحة وجب حمل قوله (ووجدك ضالا) عليه ، وأما الجمهور من العلماء فقد اتفقوا على أنه عليه السلام ما كفر بالله لحظة واحدة ، ثم قالت المعتزلة هذا غير جائز عقلا لما فيه من التنفير ، وعند أصحابنا هذا غير ممتنع عقلا لأنه جائز فى العقول أن يكون الشخص كافراً فيرزقه الله الإيمان ويكرمه بالنبوة ، إلا أن الدليل السمعى قام على أن هذا الجائز لم يقع وهو قوله تعالى (ما ضل صاحبكم وما غوى) ثم ذكروا فى تفسير هذه الآية وجوها كثيرة (أحدها) ما روى عن ابن عباس والحسن والضحاك وشهر بن حوشب (وجدك ضالا) عن معالم النعمة

وأحكام الشريعة غافلا عنها فهداك إليها ، وهو المراد من قوله (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) وقوله (وإن كنت من قبله لمن الغافلين)،(وثانيها) ضل عن مرضعته حليمة حين أرادت أن ترده إلى جده حتى دخلت إلى هبل وشكت ذلك إليه فتساقطت الأصنام ، وسمعت صوتاً يقول : إنما هلاكنا بيد هذا الصبي ، وفيه حكاية طويلة (وثالثها) ما روى مرفوعاً أنه عليه الصلاة والسلام قال « ضللت عن جدى عبد المطلب وأنا صبى ضائع ، كاد الجوع يقتلنى ، فهدانى الله » ذكره الضحاك ، وذكر تعلقه بأستار الكعبة ، وقوله :

يا رب رد ولدى محمداً اردده ربى واصطنع عندى يداً

فمازال يردد هذا عند البيت حتى أتاه أبو جهل على ناقة وبين يديه محمد وهو يقول : لا ندرى ما ذا نرى من ابنك ، فقال عبد المطلب ولم؟ قال إنى أنخت الناقة وأركبته من خلفى فأبت الناقة أن تقوم ، فلما أركبته أمامى قامت الناقة ، كأن الناقة تقول يا أحمق هو الإمام فكيف يقوم خلف المقتدى ! وقال ابن عباس رده الله إلى جده بيد عدوه كما فعل بموسى حين حفظه على يد عدوه (ورابعها) أنه عليه السلام لما خرج مع غلام خديجة ميسرة أخذ كافر بزمام بعيره حتى ضل ، فأنزل الله تعالى جبريل عليه السلام فى صورة آدمى ، فهداه إلى القافلة ، وقيل إن أبا طالب خرج به إلى الشأم فضل عن الطريق فهداه الله تعالى (وخامسها) يقال ضل الماء فى اللبن إذا صار مغموراً ، فمعنى الآية كنت مغموراً بين الكفار بمكة فقواك الله تعالى حتى أظهرت دينه (وسادسها) العرب تسمى الشجرة الفريدة فى الفلاة ضالة ، كأنه تعالى يقول كانت تلك البلاد كالمفازة ليس فيها شجرة تحمل ثمر الإيمان بالله ومعرفته إلا أنت ، فأنت ، شجرة فريدة فى مفازة الجهل فوجدتك ضالا فهديت بك الخلق ، ونظيره قوله عليه السلام « الحكمة ضالة المؤمن » (وسابعها) ووجدك ضالا عن معرفة الله تعالى حين كنت طفلا صبياً ، كما قال (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) فخلق فيك العقل والهداية والمعرفة ، والمراد من الضال الخالى عن العلم لا الموصوف بالاعتقاد الخطأ (وثامنها) كنت ضالا عن النبوة ما كنت تطمع فى ذلك ولا خطر شىء من ذلك فى قلبك ، فإن اليهود والنصارى كانوا يزعمون أن النبوة فى بنى إسرائيل فهديتك إلى النبوة التى ما كنت تطمع فيها البتة (وتاسعها) أنه قد يخاطب السيد ، ويكون المراد قومه فقوله (ووجدك ضالا) أى وجد قومك ضلالا ، فهداهم بك وبشرعك (وعاشرها) وجدك ضالا عن الضالين منفرداً عنهم مجانباً لدينهم ، فكلما كان بعدك عنهم أشد كان ضلالهم أشد ، فهداك إلى أن اختلطت بهم ودعوتهم إلى الدين المبين (الحادى عشر) وجدك ضالا عن الهجرة ، متحيراً فى يد قريش متمنياً فراقهم وكان لا يمكنك الخروج بدون إذنه تعالى ، فلما أذن له ووافقه الصديق عليه وهداه إلى خيمة أم معبد ، وكان ما كان من حديث سراقه . وظهور القوة فى الدين كان ذلك المراد بقوله (فهدى) ، (الثانى عشر) ضالا عن القبلة ، فانه كان يتمنى أن تجعل الكعبة قبلة له

وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾

وما كان يعرف أن ذلك هل يحصل له أم لا ، فهداه الله بقوله (فلنولينك قبلة ترضاها) فكأنه سمى ذلك التحير بالضلال (الثالث عشر) أنه حين ظهرها له جبريل عليه السلام فى أول أمره ما كان يعرف أهو جبريل أم لا ، وكان يخافه خوفاً شديداً ، وربما أراد أن يلقى نفسه من الجبل فهداه الله حتى عرف أنه جبريل عليه السلام (الرابع عشر) الضلال بمعنى المحبة كما فى قوله (إنك لفى ضلالك القديم) أى محبتك ، ومعناه أنك محب فهديتك إلى الشرائع التى بها تتقرب إلى خدمة محبوبك (الخامس عشر) ضالا عن أمور الدنيا لا تعرف التجارة ونحوها ، ثم هديتك حتى ربحت تجارتك ، وعظم ربحت حتى رغبت خديجة فيك ، والمعنى أنه ما كان لك وقوف على الدنيا ، وما كنت تعرف سوى الدين ، فهديتك إلى مصالح الدنيا بعد ذلك (السادس عشر) (ووجدك ضالا) أى ضائعاً فى قومك ؛ كانوا يؤذونك ، ولا يرضون بك رعية ، فقوى أمرك وهداك إلى أن صرت آمراً والياً عليهم (السابع عشر) كنت ضالا ما كنت تهتدى على طريق السموات فهديتك إذ عرجت بك إلى السموات ليلة المعراج (الثامن عشر) ووجدك ضالا أى ناسياً لقوله تعالى (أن تضل إحداهما) فهديتك أى ذكرتك ، وذلك أنه ليلة المعراج نسى ما يجب أن يقال بسبب الهيبة ، فهداه الله تعالى إلى كيفية الثناء حتى قال (لا أحصى ثناء عليك) (التاسع عشر) أنه وإن كان عارفاً بالله بقلبه إلا أنه كان فى الظاهر لا يظهر لهم خلافاً ، فعبر عن ذلك بالضلال (العشرون) روى على عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمنى الله برسالته ، فإنى قلت ليلة لغلام من قريش ، كان يرعى معى بأعلى مكة ، لو حفظت لى غنمى حتى أدخل مكة ، فأسمر بها كما يسمر الشبان ، فخرجت أريد ذلك حتى أتيت أول دار من دور مكة ، فسمعت عزفاً بالدفوف والمزامير ، فقالوا فلان ابن فلان يزوج بفلانة ، فجلست أنظر إليهم وضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس ، قال فجئت صاحبى ، فقال ما فعلت ؟ فقلت ما صنعت شيئاً ، ثم أخبرته الخبر ، قال ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فضرب الله على أذنى فما أيقظنى إلا مس الشمس ، ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمنى الله تعالى برسالته » .

قوله تعالى : ﴿ ووجدك عائلا فأغنى ﴾ فقيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ العائل هو ذو العيلة ، وذكرنا ذلك عند قوله (أن لا تعولوا) ويدل عليه قوله تعالى (وإن خفتم عيلة) ثم أطلق العائل على الفقير ، وإن لم يكن له عيال ، وههنا فى تفسير العائل قولان :

﴿ الأول ﴾ وهو المشهور أن المراد هو الفقير ، ويدل عليه ما روى أنه فى مصحف عبد الله

(ووجدك عديماً) وقرىء عيلا كما قرىء سيحات(١) ، ثم فى كيفية الإغناء وجوه (الأول) أن الله تعالى أغناه بتربية أبى طالب ، ولما اختلت أحوال أبى طالب أغناه [الله] بمال خديجة ، ولما اختل ذلك أغناه [الله] بمال أبى بكر ، ولما اختل ذلك أمره بالهجرة وأغناه بإعانة الأنصار ، ثم أمره بالجهاد ، وأغناه بالغنائم ، وإن كان إنما حصل بعد نزول هذه السورة ، لكن لما كان ذلك معلوم الوقوع كان كالواقع ، روى أنه عليه السلام « دخل على خديجة وهو مغموم ، فقالت له مالك ، فقال الزمان زمان قحط فإن أنا بذلت المال ينفد مالك فأستحى منك ، وإن لم أبذل أخاف الله ، فدعت قريشاً وفيهم الصديق ، قال الصديق : فأخرجت دنانير وصبتها حتى بلغت مبلغاً لم يقع بصرى على من كان جالساً قدامى لكثرة المال ، ثم قالت : اشهدوا أن هذا المال ماله إن شاء فرقه ، وإن شاء أمسكه » (الثانى) أغناه بأصحابه كانوا يعبدون الله سراً حتى قال عمر حين أسلم : ابرز أتعبد اللات جهراً ونعبد الله سراً ! فقال عليه السلام : حتى تكثر الأصحاب ، فقال حسبك الله وأنا فقال تعالى (حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) فأغناه الله بمال أبى بكر ، وبهيبة عمر » (الثالث) أغناك بالقناعة فصرت بحال يستوى عندك الحجر والذهب ، لا تجد فى قلبك سوى ربك ، فربك غنى عن الأشياء لا بها ، وأنت بقناعتك استغنيت عن الأشياء ، وإن الغنى الأعلى الغنى عن الشىء لا به ، ومن ذلك أنه عليه السلام خير بين الغنى والفقر ، فاختار الفقر (الرابع) كنت عائلا عن البراهين والحجج ، فأنزل الله عليك القرآن ، وعلمك مالم تكن تعلم فأغناك .

﴿ القول الثانى فى تفسير العائل ﴾ أنت كنت كثير العيال وهم الأمة ، فكفاك . وقيل فأغناهم بك لأنهم فقراء بسبب جهلهم ، وأنت صاحب العلم ، فهداهم على يدك ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما الحكمة فى أنه تعالى اختار له اليتم ؟ (قلنا) فيه وجوه (أحدها) أن يعرف قدر اليتامى فيقوم بحقهم وصلاح أمرهم ، ومن ذلك كان يوسف عليه السلام لا يشبع . فقيل له فى ذلك ، فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجياع (وثانيها) ليكون اليتيم مشاركا له فى الإسم فيكرم لأجل ذلك ، ومن ذلك قال عليه السلام « إذا سميتم الولد محمداً فأكرموه ، ووسعوا له فى المجلس » (وثالثها) أن من كان له أب أو أم كان اعتماده عليهما ، فسلب عنه الولدان حتى لا يعتمد من أول صباه إلى آخر عمره على أحد سوى الله ، فيصير فى طفوليته متشبهاً بإبراهيم عليه السلام فى قوله : حسبى من سؤالى ، علمه بحالى ، وكجواب مريم (أنى لك هذا ، قالت هومن عند الله) . (ورابعها) أن العادة جارية بأن اليتيم لا تخفى عيوبه بل تظهر ، وربما زادوا على الموجود فاختار تعالى له اليتيم ، ليتأمل كل أحد فى أحواله ، ثم لا يجدوا عليه عيباً فيتفقون على نزاهته ، فإذا اختاره الله للرسالة لم يجدوا عليه مطعناً (وخامسها) جعله يتيما ليعلم كل أحد أن فضيلته من الله ابتداء لأن الذى له أب ، فإن أباه يسعى فى تعليمه وتأديبه (وسادسها) أن اليتم والفقر نقص فى حق

(١) هكذا فى الأصل ولعله يعنى قرىء (ووجدك عيلا) بتشديد الياء مع مع كسرها كما قرىء (سيحات) كذلك فى قوله تعالى (سائحات) . والله أعلم

فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾

الخلق ، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام ، مع هذين الوصفين أكرم الخلق ، كان ذلك قلباً للعادة ، فكان من جنس المعجزات .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الحكمة فى أن الله ذكر هذه الأشياء ؟ (الجواب) الحكمة أن لا ينسى نفسه فيقع فى العجب ،

﴿ السؤال الثالث ﴾ روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سألت ربى مسألة وددت أنى لم أسألها ، قلت : اتخذت إبراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما ، وسخرت مع داود الجبال ، وأعطيت سليمان كذا وكذا ، وأعطيت فلاناً كذا وكذا ، فقال : ألم أجدك يتيما فآويتك ؟ ألم أجدك ضالا فهديتك ؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك ؟ قلت بلى (فقال : ألم أشرح لك صدرك ؟ قلت بلى ، قال : ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت بلى ! قال ألم أصرف عنك وزرك ؟ قلت بلى ألم أوتك مالم أوت نبياً قبلك وهى خواتيم سورة البقرة ؟ ألم أتخذك خليلا كما اتخذت إبراهيم خليلا ؟ » فهل يصح هذا الحديث (قلنا) طعن القاضى فى هذا الخبر فقال إن الأنبياء عليهم السلام لا يسألون مثل ذلك إلا عن إذن ، فكيف يصح أن يقع من الرسول مثل هذا السؤال . ويكون منه تعالى ما يجرى مجرى المعاتبة .

قوله تعالى : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ وقرىء فلا تكهر ، أى لا تعبس وجهك إليه ، والمعنى عامله بمثل ما عاملك به ، ونظيره من وجه (وأحسن كما أحسن الله إليك) ومنه قوله عليه السلام « الله الله فيمن ليس له إلا الله » (وروى) أنها نزلت حين صاح النبى صلى الله عليه وسلم على ولد خديجة ومنه حديث موسى عليه السلام حين « قال إلهى بم نلت مانلت ؟ قال أتذكر حين هربت منك السخلة ، فلما قدرت عليها قلت أتعبت نفسك ثم حملتها . فلهذا السبب جعلتك ولياً على الخلق ، فلما نال موسى عليه السلام النبوة بالإحسان إلى الشاة فكيف بالإحسان إلى اليتيم ، وإذا كان هذا العتاب بمجرد الصياح أو العبوسية فى الوجه ، فكيف إذا أذله أو أكل ماله ، عن أنس عن النبى عليه الصلاة والسلام « إذا بكى اليتيم وقعت دموعه فى كف الرحمن ، ويقول تعالى : من أبكى هذا اليتيم الذى واريت والده فى التراب ، من أسكته فله الجنة » .

قوله تعالى : ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ يقال نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره ، وفى المراد من السائل قولان (أحدهما) وهو اختيار الحسن أن المراد منه من يسأل العلم ونظيره من وجه (عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى) وحينئذ يحصل الترتيب ، لأنه تعالى قال له أولا (ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى) ثم اعتبر هذا الترتيب ، فأوصاه برعاية حق اليتيم ، ثم برعاية حق من يسأله عن العلم والهداية ، ثم أوصاه بشكر نعم الله عليه

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

(والقول الثانى) أن المراد مطلق السائل ولقد عاتب الله رسوله فى القرآن فى شأن الفقراء فى ثلاثة مواضع (أحدها) أنه كان جالساً وحوله صناديد قريش، إذ جاء ابن أم مكتوم الضرير، فتخطى رقاب الناس حتى جلس بين يديه، وقال علمنى مما علمك الله، فشق ذلك عليه فعبس وجهه فنزل (عبس وتولى)، (والثانى) حين قالت له قريش لو جعلت لنا مجلساً وللفقراء مجلساً آخر فهم أن يفعل ذلك فنزل قوله (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم)، (والثالث) كان جالساً فجاءه عثمان بعذق من تمر فوضعه بين يديه فأراد أن يأكل فوقف سائل بالباب، فقال رحم الله عبداً يرحمنا، فأمر بدفعه إلى السائل فكره عثمان ذلك، وأراد أن يأكله النبى عليه السلام فخرج واشتراه من السائل، ثم رجع السائل ففعل ذلك ثلاث مرات، وكان يعطيه النبى عليه السلام إلى أن قال له النبى صلى الله عليه وسلم أسائل أنت أم بائع؟ فنزل (وأما السائل فلا تنهر).

قوله تعالى: ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ وفيه وجوه (أحدها) قال مجاهد تلك النعمة هى القرآن، فإن القرآن أعظم ما أنعم الله به على محمد عليه السلام، والتحديث به أن يقرأه ويقرىء غيره ويبين حقائقه لهم (وثانيها) روى أيضاً عن مجاهد أن تلك النعمة هى النبوة، أى بلغ ما أنزل إليك من ربك (وثالثها) إذا وفقك الله فراعيت حق اليتيم والسائل، وذلك التوفيق نعمة من الله عليك فحدث بها ليقتدى بك غيرك، ومنه ما روى عن الحسين بن على عليه السلام أنه قال: إذا عملت خيراً فحدث إخوانك ليقتدوا بك، إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء، وظن أن غيره يقتدى به، ومن ذلك لما سئل أمير المؤمنين على عليه السلام عن الصحابة فأثنى عليهم وذكر خصالهم، فقالوا له فحدثنا عن نفسك فقال مهلا، فقد نهى الله عن التزكية فقيل له أليس الله تعالى يقول (وأما بنعمة ربك فحدث) فقال فانى أحدث، كنت إذا سئلت أعطيت وإذا سكت ابتديت، وبين الجوانح علم جم فاسألونى، فإن قيل فما الحكمة فى أن أخر الله تعالى حق نفسه عن حق اليتيم والعائل؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) كأنه يقول أنا غنى وهما محتاجان وتقديم حق المحتاج أولى (وثانيها) أنه وضع فى حظهما الفعل ورضى لنفسه بالقول (وثالثها) أن المقصود من جميع الطاعات استغراق القلب فى ذكر الله تعالى، فجعل خاتمة هذه الطاعات تحدث القلب واللسان بنعم الله تعالى حتى تكون ختم الطاعات على ذكر الله، واختار قوله (فحدث) على قوله فخبر، ليكون ذلك حديثا عنده لا ينساه، ويعيده مرة بعد أخرى، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿ تم الجزء الحادى والثلاثون ويتلوه الجزء الثانى والثلاثون ﴾
وأوله تفسير سورة الإنشراح

سورة «الضُّحَى»

مكيةٌ باتِّفاق، وهي إحدى عَشْرَةَ آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ قد تقدَّم القولُ في «الضحى»[(١)]، والمرادُ به النهارُ؛ لقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ فقابَلَه بالليل، وفي سورة الأعراف: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ . أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الآيتان: ٩٧-٩٨] أي: نهاراً.

وقال قتادةُ ومقاتلٌ وجعفرُ الصادقُ: أَقْسَم بالضُّحى الذي كلَّم الله فيه موسى، وبليلة المِعراج.

وقيل: هي الساعةُ التي خرَّ فيها السَّحَرةُ سجَّداً، بيانُه قولُه تعالى: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ [طه: ٥٩].

وقال أهلُ المعاني فيه وفي أمثاله[(٢)]: فيه إضمارٌ، مَجازُه: وربِّ الضُّحى.

و«سَجَا» معناه: سَكَن؛ قاله قتادةُ ومجاهدٌ وابنُ زيدٍ وعكرمةُ[(٣)]. يقال: ليلةٌ ساجيةٌ، أي: ساكنةٌ. ويقال للعَيْنِ إذا سَكَن طَرْفُها: ساجية. يقال: سجا الليلُ[(٤)] يَسْجو سَجْواً: إذا سَكَن. والبحرُ إذا سجا: سَكَن؛ قال الأعشى:

---

(١) عند تفسير الآية (٥٩) من سورة طه، والآية الأولى من سورة الشمس.

(٢) في النسخ الخطية: إقباله، والمثبت من (م) واللباب ٢٠/ ٣٨٠ .

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٣ ، وتفسير الرازي ٣١/ ٢٠٨ .

(٤) في (ظ) و(ي): الشيء.

فما ذَنْبُنا أن جاش بحرُ ابنِ عمِّكم وبحرُكَ ساجٍ ما يواري الدَّعَامِصا[١]

وقال الراجز:

يا حَبَّذَا القَمْراءُ والليلُ السَّاجْ وطُرُقٌ مِثلُ مُلَاءِ النَّسَّاجْ[٢]

وقال جرير:

ولقد رمينَكَ يومَ رُحْنَ بأعينٍ ينظُرنَ من خَلَلِ السُّتورِ سَوَاجي[٣]

وقال الضحَّاك: «سجا»: غطَّى كلَّ شيء[٤]. قال الأصمعيُّ: سَجْوُ الليل: تَغْطِيتُه النهارَ، مثلما يُسَجَّى الرجلُ بالثوب[٥].

وقال الحسن: غَشِيَ بظلامه. وقاله ابن عباس. وعنه: إذا ذهب. وعنه أيضاً: إذا أظْلَمَ. وقال سعيد بن جبير: أَقْبَلَ. ورُوي عن قتادةَ أيضاً. ورَوَى ابن أبي نجيحٍ عن مجاهد: «سجا»: استوى[٦].

والقولُ الأوّل أَشْهرُ في اللغة: «سجا»: سَكَن، أي: سَكَن الناسُ فيه. كما يقال: نهارٌ صائمٌ، وليلٌ قائمٌ. وقيل: سكونُه: استقرارُ ظَلامِه واستواؤُه.

ويقال: «والضحى. والليل إذا سَجَا»: يعني عبادَه الذين يعبدونه في وقت الضحى، وعبادَه الذين يعبدونه بالليل إذا أظْلَم.

---

(١) ديوان الأعشى ص٢٠١، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٣، والصحاح (سجا). ووقع في الديوان: أتوعدني أن جاش بحر...، والدعامص: جمع دُعْموص: دودة سوداء تكون في الغدران إذا قل ماؤها. معجم متن اللغة (دعمص).

(٢) العين ٦/ ١٦١، ومجاز القرآن ٢/ ٣٠٢، والكامل للمبرد ١/ ٣٧١، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٤، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٩، وتهذيب اللغة ١١/ ١٤٠، وأساس البلاغة (سجو).

(٣) ديوان جرير ١/ ١٣٧. قال الشارح: خلل الستور: الفُرَجُ التي بينها. السواجي: الفواتر، وواحدها: ساجية. وفي العين ٦/ ١٦١: عين ساجية، أي: فاترة النظر، يعتري الحسن في النساء.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٨.

(٥) تهذيب اللغة ١١/ ١٤١.

(٦) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٢، والنكت والعيون ٦/ ٢٩١، وتفسير الرازي ٣١/ ٢٠٨.

ويقال: «الضحى»: يعني نور الجنةِ إذا تنوَّر. «والليل إذا سجا»: يعني ظُلمة الليلِ إذا أظْلَم.

ويقال: «والضحى»: يعني النور الذي في قلوب العارِفين كهيئة النهار. «والليلِ إذا سجا»: يعني السواد الذي في قلوب الكافرين كهيئة الليل؛ فأَقْسَمَ الله عزَّ وجلَّ بهذه الأشياء.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾: هذا جوابُ القسم. وكان جبريلُ عليه السلام أبطأ على النبيِّ ﷺ، فقال المشركون: قَلَاه الله وودَّعه، فنزلت الآية. وقال ابن جريج: احْتَبَس عنه الوحيُ اثني عَشَرَ يوماً. وقال ابن عباس: خمسةَ عَشَرَ يوماً. وقيل: خمسةً وعشرين يوماً. وقال مقاتل: أربعين يوماً[(١)]. فقال المشركون: إنَّ محمداً ودَّعه ربُّه وقَلاه، ولو كان أمرُه من الله لتابَعَ عليه، كما كان يفعل بمَن كان قَبْلَه من الأنبياء.

وفي البخاريِّ عن جُنْدُب بن سفيان قال: اشْتَكَى رسولُ اللهِ ﷺ، فلَمْ يَقُمْ ليلتين أو ثلاثاً، فجاءتِ امرأةٌ فقالت: يا محمدُ، إنِّي لأرجو أنْ يكونَ شيطانُك قد تَرَكَك، لمْ أرَه قَرِبَك منذ ليلتين أو ثلاثٍ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[(٢)].

وفي الترمذيِّ عن جُنْدُب البَجَليِّ قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في غارٍ فدَمِيتْ إصبعُه، فقال النبيُّ ﷺ: «هَلْ أَنْتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيتِ، وفي سَبيلِ الله مَا لَقِيتِ»! قال: وأبطأ عليه جبريلُ فقال المشركون: قد وُدِّعَ محمدٌ، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا

---

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي ٤/٤٩٨ ، والرازي ٣١/٢١١ ، وسلفت عند تفسير الآية (٦٤) من سورة مريم.

(٢) صحيح البخاري (٤٩٥٠)، وهو عند أحمد (١٨٨٠١)، ومسلم (١٧٩٧): (١١٥). وجندب بن سفيان هو جندب بن عبد الله بن سفيان البَجَلي، ومَن قال: ابن سفيان، نسَبه إلى جدِّه، سكن الكوفة، ثم البصرة، قَدِمها مع مصعب بن الزبير، وروى عنه أهل المصرين. الإصابة ٢/١٠٤ .

قَلَى﴾. هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[١]. لم يذكر الترمذيُّ: «فلم يَقُم ليلتين أو ثلاثاً»، أسْقَطه الترمذيُّ، وذكره البخاريُّ، وهو أصحُّ ما قيل في ذلك. والله أعلم.

وقد ذكره الثعلبيُّ أيضاً عن جندب بن سفيان البَجَليِّ، قال: رُميَ النبيُّ ﷺ في إصبعه بحجرٍ، فدَمِيَتْ، فقال: «هل أنتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيْتِ، وفي سبيل اللهِ ما لَقِيْتِ» فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقومُ الليل. فقالت له أمُّ جميلٍ امرأةُ أبي لهبٍ: ما أرى شيطانَك إلا قد تَرَكك، لم أرَه قَرِبَكَ منذ ليلتين أو ثلاثٍ، فنزلت «والضُّحى».

وروى عن أبي عمران الجَوْنيِّ قال: أبطأ جبريلُ على النبيِّ ﷺ حتى شَقَّ عليه، فجاءَه وهو واضعٌ جبهتَه على الكعبة يدعو، فنَكَتَ بين كَتِفيه، وأنزل عليه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

وقالت خولةُ ـ وكانت تخدُم النبيَّ ﷺ ـ: إنَّ جَرْواً دخل البيتَ، فدخل تحت السَّريرِ، فمات، فمكَثَ نبيُّ الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحيُ. فقال: «يا خولةُ، ما حَدَث في بيتي؟ جبريلُ لا يأتيني»! قالت خولة: فقلتُ: لو هيَّأتُ البيتَ وكنستُه، فأهْوَيْتُ بالمِكْنسةِ تحت السريرِ، فإذا جَرْوٌ ميتٌ، فأخذتُه فألقيتُه خلفَ الجدارِ، فجاء نبيُّ الله تَرْعدُ لحياه ـ وكان إذا نزل عليه الوحيُ استقبلته الرِّعدةُ ـ فقال: «يا خولةُ دثِّريني» فأنزل الله هذه السورة[٢].

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٥)، وأخرجه مسلم مقطَّعاً (١٧٩٦): (١١٣) و(١٧٩٧): (١١٤). وأخرجه دون قوله: وأبطأ عليه جبريل...، أحمد (١٨٧٩٧)، والبخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٧): (١١٢)، وفيه: دَميتْ إصبع رسول الله ﷺ في بعض المشاهد فقال: «هل أنت...». قال القاضي عياض: قد يراد بالغار الجيش والجمع، لا واحد الغيران التي هي الكهوف، فيوافق قوله: في بعض المشاهد. إكمال المعلم ٦/ ١٧٠.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/ (٦٣٦)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٩٠ وعنه نقل المصنف. قال الحافظ في الفتح ٨/ ٧١٠ : وجدت في الطبراني بإسناد فيه مَن لا يعرف أن سبب نزولها وجود جرو كلب تحت سريره لم يشعر به النبي ﷺ، وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذ مردود بما في الصحيح. اهـ. وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سرير النبي ﷺ أخرجها أحمد (٢٥١٠٠)، ومسلم (٢١٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجها البخاري (٥٩٦٠) مختصرة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ولمَّا نزل جبريل، سأله النبيُّ ﷺ عن التأخُّر فقال: «أمَا عَلِمْتَ أنَّا لا ندخلُ بيتاً فيه كلبٌ ولا صُورة»(١).

وقيل: لمَّا سألته اليهودُ عن الروح وذي القرنين وأصحابِ الكهفِ قال: «سأُخْبِرُكم غداً» ولم يقل: إنْ شاء الله. فاحتَبَس عنه الوحي، إلى أن نزل جبريل عليه بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣] فأخبره بما سُئل عنه. وفي هذه القصة نزلت: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾(٢).

وقيل: إنَّ المسلمين قالوا: يا رسول الله، مالَكَ لا ينزلُ عليك الوحي؟ فقال: «وكيف ينزلُ عليَّ وأنتم لا تُنقُّونَ رَوَاجِبَكم ـ وفي روايةٍ بَراجِمَكم ـ ولا تَقصُّون أَظْفارَكم، ولا تأخذون من شَوارِبكم». فنزل جبريلُ بهذه السورة، فقال النبيُّ ﷺ: «ما جِئْتَ حتى اشْتَقْتُ إليك» فقال جبريلُ: «وأنا كنتُ أشدَّ إليك شوقاً، ولكنِّي عبدٌ مأمور» ثم أنزل عليه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤](٣).

«ودَّعك» بالتشديد قراءةُ العامة، من التوديع، وذلك كتوديع المُفارِق. وروي عن ابن عباسٍ وابن الزبير أنهما قرأاه: «وَدَعك» بالتخفيف(٤)، ومعناه: تَركَكَ. قال:

وثُم وَدَعْنا آلَ عَمْرٍو وعامرٍ فَرائسَ أطرافِ المثقَّفةِ السُّمْرِ(٥)

واستعمالُه قليل. يقال: هو يَدَعُ كذا، أي: يتركُه. قال المبرِّد محمد بنُ يزيد: لا يكادون يقولون: وَدَعَ، ولا وَذَرَ؛ لضَعْفِ الواوِ إذا قدِّمَتْ، واستَغْنَوا عنها بتَرَكَ(٦).

---

(١) قطعة من حديث عائشة وابن عمر ـ ﷺ ـ وقد سلف تخريجهما في التعليق السابق.

(٢) ذكره بنحوه الواحدي في الوسيط ٤/٥٠٨ ، والبغوي ٤/ ٤٩٧-٤٩٨ ، وينظر ما سلف عند تفسير الآية (٦٤) من سورة مريم.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٨١) إلى قوله: «شواربكم» من حديث ابن عباس ﷺ، وإسناده ضعيف. وسلف باقي الخبر بنحوه عن مجاهد ١٣/ ٤٨١ . قال الجوهري في الصحاح (رجب): الراجبة في الإصبع واحدة الرواجب، وهي مفاصل الأصابع اللاتي تلي الأنامل، ثم البراجم، ثم الأشاجع اللاتي يلين الكف.

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٥ ، والمحتسب ٢/ ٣٦٤ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٦٣ ، وذكره الحافظ في الفتح برواية: ونحن ودعنا...

(٦) سلف نحوه عن سيبويه ٨/ ٥٠٣ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: ما أبْغضَكَ ربُّك منذ أحبَّك. وترك الكاف لأنه رأسُ آية. والقِلَى: البغضُ، فإنْ فتَحْتَ القافَ مَدَدْتَ؛ تقول: قَلاَه يَقْلِيه قِلًى وقَلاَءً. كما تقول: قَرَيْتُ الضعيفَ أَقْرِيه قِرًى وقَرَاءً. ويَقْلاَه لغةُ طيِّئ؛ وأنشد ثعلب:

أيـامَ أمِّ الـغَـمْـرِ لا نَـقْـلاهـا[1]

أي: لا نُبغضُها. ونَقْلَى، أي: نُبغض، وقال:

أسِيئي بنا أو أحْسِني لا ملومةٌ لدينا ولا مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ[2]

وقال امرؤ القيس:

ولستُ بمَقْليِّ الخِلالِ ولا قالِ[3]

وتأويلُ الآية: ما ودَّعك ربُّك وما قَلاك، فترك الكاف لأنَّه رأسُ آية، كما قال عزَّ وجلّ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] أي: والذَّاكِرَاتِ اللهَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾

روى سَلمةُ عن ابن إسحاق قال: ﴿وَلَلآخِرة خير لكَ مِنَ الأولى﴾ أي: ما عندي في مَرْجِعِكَ إليَّ يا محمدُ، خيرٌ لك مما عَجَّلْتُ لك من الكرامةِ في الدنيا[4]. وقال ابن عباس: أُرِيَ النبيُّ ﷺ ما يَفْتحُ الله على أمَّته بَعْدَه، فسُرَّ بذلك، فنزل جبريلُ بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[5]. قال ابن إسحاق:

---

(١) الصحاح (قلا)، ووقع في النسخ: يا رب، بدل: أيام، والمثبت من الصحاح، واللسان (قلا)، وفيه بعده: ولو تشاء قبَّلتْ عيناها.

(٢) سلف ١٠/ ٢٣٦ .

(٣) وصدره: صرفتُ الهوى عنهنَّ من خشية الردى، والبيت في ديوان امرئ القيس ص٣٥ ، وسلف ص٣٢٧ من هذا الجزء.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤١ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٨٨ .

الفَلْجُ[١] في الدنيا، والثوابُ في الآخرة. وقيل: الحوضُ والشفاعةُ.

وعن ابن عباس: ألفُ قَصْرٍ من لؤلؤٍ أبيضَ ترابُه المِسْكُ[٢]. رَفَعه الأَوْزاعيُّ، قال: حدَّثني إسماعيلُ بنُ عبيدِ الله، عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: أُرِيَ النبيُّ ﷺ ما هو مفتوحٌ على أمَّتِه، فسُرَّ بذلك، فأنزل الله عزَّ وجلّ: «والضحى ـ إلى قوله تعالى ـ ولَسَوفَ يُعطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى»، فأعطاه الله جلَّ ثناؤه ألفَ قصرٍ في الجنة، ترابُها المِسْكُ، في كلِّ قصرٍ ما ينبغي له من الأزواج والخدم[٣].

وعنه قال: رِضا محمدٍ ألَّا يدخل أحدٌ من أهلِ بيتِهِ النارَ. وقاله السُّدِّي[٤].

وقيل: هي الشفاعةُ في جميع المؤمنين. وعن عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يشفِّعُني الله في أُمَّتي، حتى يقولَ الله سبحانه لي: أرَضيتَ يا محمد؟ فأقول: يا ربِّ رضيتُ»[٥].

وفي «صحيح» مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أنَّ النبيَّ ﷺ تلا قولَ الله تعالى في إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] وقولَ عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ﴾ [المائدة:١١٨]، فرفع يديه وقال: «اللهمَّ أمَّتي أمَّتي» وبكى. فقال الله تعالى لجبريل: «اذهبْ إلى محمدٍ ـ وربُّك أعْلَم ـ فسَلْه ما يُبكيكَ» فأتَى جبريلُ النبيَّ ﷺ، فسأله فأخبره. فقال الله تعالى لجبريل: «اذهبْ إلى

---

(١) في (د) و(ي): الفلح، وفي (ظ): الفتح، والمثبت من (م) وسيرة ابن هشام ١/ ٢٤١ . والفَلْجُ ـ بالجيم ـ بوزن الفَلْس: الظَّفَر والفوز. والفَلَح ـ بالحاء ـ محركةً: الفوز والنجاة. القاموس (فلج) و(فلح).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٠٤ ، والطبري ٤/ ٤٨٨ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٨٨ ، والطبراني في الكبير (١٠٦٥٠)، والحاكم ٢/ ٥٥٦ ، والواحدي في أسباب النزول ص٤٩٠ . قال ابن كثير عن تفسير هذه الآية: وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٨٨ من طريق السدي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه البيهقي في الشعب (١٤٤٥) من طريق سعيد بن جبير عنه بلفظ: رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة.

(٥) أخرجه البزار في المسند (٦٣٨)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٧٩ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦١ لابن المنذر وابن مردويه.

محمدٍ، فقُل له: إنَّ الله يقولُ لك: إنَّا سنُرْضِيْكَ في أمَّتك ولا نَسُوءُك»[١].

وقال عليٌّ ﷺ[٢] لأهل العراق: إنَّكم تقولون: إنَّ أرْجَى آيةٍ في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] قالوا: إنَّا نقولُ ذلك. قال: ولكنَّا أهلَ البيت نقولُ: إنَّ أرْجَى آيةٍ في كتاب الله قولُه تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

وفي الحديث: لمَّا نزلت هذه الآيةُ قال النبيُّ ﷺ: «إذاً واللهِ لا أرضَى وواحدٌ من أمتي في النار»[٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾

عدَّد سبحانه مِنَنَه على نبيِّه محمدٍ ﷺ فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ لا أبَ لك، قد مات أبوك، ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: جعل لك مأوًى تأوي إليه عند عمِّك أبي طالب، فكَفِلَك. وقيل لجعفر بن محمد الصَّادقِ: لـمَ أُوتِمَ النبيُّ ﷺ من أبويه؟ فقال: لئلا يكون لمخلوقٍ عليه حقٌّ[٤].

وعن مجاهد: هو مِن قول العرب: درَّةٌ يتيمة؛ إذا لم يكن لها مِثْل[٥]. فَمَجازُ الآيةِ: ألَم يجدك واحداً في شَرَفكَ لا نظيرَ لك، فآواك الله بأصحابٍ يحفظونك ويَحُوطونك.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾

أي: غافلاً عمَّا يرادُ بك من أمرِ النبوَّة، فهداك، أي: أَرْشَدَك. والضلالُ هنا

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٢)، وسلف ٨/ ٣٠٦.

(٢) كذا في النسخ، والصواب أنه أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين، كما في الحلية ٣/ ١٧٩، والوسيط ٤/ ٥١٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٨، والدر المنثور ٦/ ٣٦١ عن ابن المنذر وابن مردويه.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤، وتفسير الرازي ٣١/ ٢١٣.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٩٣ دون نسبة.

بمعنى الغَفْلةِ، كقوله جلَّ ثناؤه: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] أي: لا يَغْفَلُ. وقال في حقِّ نبيِّه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال قوم: «ضالًّا»: لم تكنْ تدري القرآنَ والشرائعَ، فهداك الله إلى القرآن، وشرائعِ الإسلام؛ عن الضَّحَّاك وشهر بنِ حوشب وغيرِهما. وهو معنى قولِه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢][١]، على ما بيَّنا في سورة الشورى.

وقال قوم: «ووجدك ضالًّا» أي: في قومٍ ضُلَّالٍ، فهداهم الله بك. هذا قولُ الكلبيِّ والفرَّاء[٢]. وعن السُّدِّيِّ نحوُه، أي: ووجد قومك في ضلالٍ، فهداك إلى إرشادهم. وقيل: «ووجدك ضالًّا» عن الهجرة، فهداك إليها[٣].

وقيل: «ضالًّا» أي: ناسياً شأنَ الاستثناءِ حين سُئلْتَ عن أصحاب الكهفِ وذي القرنين والروح، فأَذْكَرَكَ، كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقيل: ووجَدَكَ طالباً للقِبْلةِ فهداك إليها، بيانُه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية [البقرة: ١٤٤]. ويكون الضَّلالُ بمعنى الطَّلبِ؛ لأنَّ الضَّالَّ طالبٌ.

وقيل: ووجدك متحيِّراً عن بيانِ ما نزل عليك، فهداك إليه، ويكونُ الضلالُ بمعنى التحيُّرِ؛ لأنَّ الضالَّ مُتحيِّرٌ.

وقيل: ووجدك ضائعاً في قومك، فهداك إليه، ويكون الضلالُ بمعنى الضَّيَاعِ.

وقيل: ووجدك مُحِبّاً للهداية، فهداك إليها، ويكون الضلالُ بمعنى المحبة، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] أي: في مَحبَّتِك[٤]. قال الشاعر:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣٩-٣٤٠ دون نسبة، وذكره بنحوه البغوي ٤/ ٤٩٩، والرازي ٣١/ ٢١٦-٢١٧ عن ابن عباس والحسن والضحاك وشهر بن حوشب وابن كيسان.

(٢) بنحوه في معاني القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

(٤) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

هـذا الـضَّـلالُ أشـابَ مـنِّـي الـمَـفْـرِقـا والـعـارِضَـيْـنِ ولـم أكُـنْ مُـتَـحـقِّـقـا
عَـجـبـاً لـعَـزَّةَ فـي اخـتـيـار قـطـيـعـتـي بـعـد الـضـلالِ فـحَـبْـلُـهـا قـد أخـلـقـا[١]

وقيل: «ضالًّا» في شِعابِ مكةَ، فهداك: ردَّك[٢] إلى جدِّك عبدِ المطَّلب؛ قال ابن عباس: ضلَّ النبيُّ ﷺ وهو صغيرٌ في شعابِ مكةَ، فرآه أبو جهل مُنْصَرِفاً عن أغنامه، فردَّه إلى جدِّه عبدِ المطلب[٣]. فمنَّ الله عليه بذلك، حين ردَّه إلى جدِّه على يدي عدوِّه.

وقال سعيد بن جبير: خرج النبيُّ ﷺ مع عمِّه أبي طالب في سفر، فأخذ إبليسُ بزمامِ الناقةِ في ليلةٍ ظَلماءَ، فعَدَلَ بها عن الطريق، فجاء جبريلُ عليه السلام فنَفَخَ إبليسَ نفخةً وقع منها إلى أرض الهند، وردَّه إلى القافلة؛ فمنَّ الله عليه بذلك[٤].

وقال كعب: إنَّ حَليمةَ لمَّا قَضَتْ حقَّ الرضاعِ، جاءت برسول الله ﷺ لتردَّه على عبد المطلب، فسَمِعَتْ عند بابِ مكةَ: هنيئاً لكِ يا بَطْحاءَ مكةَ، اليومَ يُردُّ إليك النورُ والدِّينُ والبهاءُ والجمال. قالت: فوضعتُه لأصلِح ثيابي، فسمعتُ هدَّةً شديدةً، فالتفتُّ فلمْ أرَه، فقلت: مَعْشَرَ الناسِ، أين الصبيُّ؟ فقالوا: لمْ نَرَ شيئاً، فصِحْتُ: وا محمداه! فإذا شيخٌ فانٍ يتوكَّأُ على عصاه، فقال: اذهبي إلى الصنم الأعظم، فإنْ شاء أنْ يردَّه عليك فَعَلَ. ثم طاف الشيخ بالصنم، وقبَّل رأسَه وقال: يا رب، لم تَزَلْ منَّتُكَ على قريش، وهذه السعدِيةُ تزعم أنَّ ابنها قد ضلَّ، فرُدَّه إن شئت. فانْكَبَّ هُبَلُ على وجهه، وتَساقَطَتِ الأصنام، وقالت: إليكَ عنَّا أيها الشيخ، فهلاكُنا على يَدَيْ محمدٍ. فألقى الشيخ عصاه، وارْتَعَدَ وقال: إنَّ لابنِكِ ربًّا لا يضيعُه، فاطلُبيه على مَهَل.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

(٢) في (م): وردك.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٩.

(٤) ذكره البغوي ٤/ ٤٩٩ وابن الجوزي ٩/ ١٥٩ عن سعيد بن المسيب، وفيهما: أرض الحبشة، بدل: أرض الهند.

فانحشرت قريش إلى عبد المطلب، وطلبوه في جميع مكة، فلم يَجدِوه. فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً، وتَضَرَّع إلى الله أن يردَّه، وقال:

يــا ربِّ رُدَّ ولــدي مــحــمــدا ... ارْدُدْه ربِّــي واتَّــخِــذْ عــنــدي يــدا

يــا ربِّ إنْ مــحــمــدٌ لــم يُــوجَــدا ... فــشَــمْــلُ قــومــي كــلِّــهــم تــبــدَّدا

فسمعوا منادياً ينادي من السماء: معاشِرَ الناس لا تَضِجُّوا، فإنَّ لمحمدٍ ربًّا لا يخذلُه ولا يضيعُه، وإنَّ محمداً بوادي تِهامةَ، عند شجرة السَّمُر. فسار عبد المطلب هو وورقة بنُ نوفل، فإذا النبيُّ ﷺ قائمٌ تحت شجرةٍ يلعبُ بالأغصان وبالورق[١].

وقيل: «ووجدك ضالًّا» ليلةَ المِعراج، حين انصرف عنك جبريلُ وأنت لا تعرفُ الطريقَ، فهداك إلى ساقِ العرش.

وقال أبو بكر الورَّاقُ وغيرُه: «ووجدك ضالًّا»: تحبُّ أبا طالبٍ، فهداك إلى محبَّة ربِّك.

وقال بسام بن عبد الله: «ووجدك ضالًّا» نَفْسَك[٢] لا تدري من أنت، فعرَّفك بنفسِك وحالك.

وقال الجنيد: ووجدك متحيِّراً في بيان الكتاب، فعلَّمك البيانَ، بيانُه: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [النحل: ٤٤]. ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤].

وقال بعض المتكلِّمين: إذا وَجَدتِ العربُ شجرةً منفردةً في فلاةٍ من الأرض، لا شجرَ معها، سمَّوْها ضالَّة، فيهتدَى بها إلى الطريق، فقال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: «ووجدك ضالًّا» أي: لا أحدَ على دينك، وأنت وحيدٌ ليس معك أحدٌ، فَهدَيتُ بك الخَلْقَ إليّ[٣].

---

(١) أخرجه مطولاً ابن عساكر في تاريخه ٣/ ٤٧٤-٤٧٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في النسخ عدا (ظ): بنفسك، والمثبت من (ظ) وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٩.

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ٢١٧، قال الرازي: ونظيره قوله عليه السلام: «الحكمة ضالَّة المؤمن».

قلت: هذه الأقوالُ كلُّها حِسانٌ، ثم منها ما هو معنويٌّ، ومنها ما هو حِسِّيٌّ. والقولُ الأخيرُ أَعْجبُ إليَّ؛ لأنه يجمع الأقوالَ المعنوية.

وقال قومٌ: إنَّه كان على جملةِ ما كان القوم عليه، لا يُظهِرُ لهم خلافاً في ظاهر الحال، فأمَّا الشِّركُ فلا يُظَنَّ به، بل كان على مراسم القوم في الظَّاهِرِ أربعين سنة.

وقال الكلبيُّ والسدِّيُّ: هذا على ظاهره، أي: وجدك كافراً والقومُ كفَّارٌ فهداك[1]. وقد مضى هذا القولُ والردُّ عليه في سورة الشورى[2].

وقيل: وجدك مغموراً بأهل الشِّرْكِ، فميَّزك عنهم؛ يقال: ضلَّ الماء في اللبن[3]، ومنه: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أي: لَحِقْنا بالتراب عند الدَّفن، حتى كأنَّا لا نَتميَّز من جملته.

وفي قراءة الحسن: «ووجدك ضالٌّ فهُديَ» أي: وجدك الضالُّ فاهتَدَى بك[4]، وهذه قراءةٌ على التفسير.

وقيل: «ووجدك ضالًّا» لا يهتدي إليك قومُك، ولا يعرفون قَدْرَك؛ فهدَى المسلمين إليك، حتى آمنوا بك.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

أي: فقيراً لا مالَ لك. ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي: فأغناك بخديجةَ رضي الله عنها؛ يقال: عالَ الرجلُ يَعِيلُ عَيْلَةً: إذا افْتقَر؛ قال أُحَيحةُ بن الجُلاح:

فما يَدْري الفقيرُ متى غِناهُ ... وما يَدري الغنيُّ متى يَعِيلُ[5]

أي: يفتقر.

(١) ذكره عنهما الرازي ٣١/ ٢١٧.

(٢) عند تفسير الآية (٥٢) منها.

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ٢١٧.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

(٥) ديوان أحيحة بن الجلاح ص٧٤، وسلف ٦/ ٣٩.

وقال مقاتل: فرضَّاك بما أعطاك من الرزق[١]. وقال الكلبيُّ: قنَّعك بالرزق.

وقال ابن عطاء: وجدك فقيرَ النَّفْسِ، فأغنَى قلبك.

وقال الأخفش[٢]: وجدك ذا عيالٍ، دليلُه: «فأغنى»، ومنه قولُ جرير:

اللهُ أنزلَ في الكتاب فريضةً لابنِ السبيلِ ولِلفقيرِ العائِلِ[٣]

وقيل: وجدك فقيراً من الحُجَج والبراهين، فأغناك بها[٤].

وقيل: أغناك بما فتح لك من الفتوح، وأفاءه عليك من أموال الكفار. القشيريُّ: وفي هذا نَظَرٌ؛ لأنَّ السورة مكيةٌ، وإنَّما فُرِضَ الجهاد بالمدينة[٥].

وقراءةُ العامَّةِ: «عائلاً». وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «عَيِّلا» بالتشديد[٦]، مثل: طيِّب وهيِّن.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: لا تَسَلَّطْ[٧] عليه بالظُّلم، ادفع إليه حقَّه، واذكُرْ يُتْمكَ؛ قاله الأخفش. وقيل: هما لغتان بمعنى[٨]. وعن مجاهد «فلا

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩٤، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩٩.

(٢) قوله في النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

(٣) ديوان جرير ٢/ ٧٣٧ برواية: والله أنزل.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٩٤.

(٥) وذكر الرازي ٣١/ ٢١٩ أن هذا وإن كان حصل بعد نزول هذه السورة، لكن لما كان معلوم الوقوع كان كالواقع.

(٦) القراءات الشاذة ص١٧٥.

(٧) في (ظ): تشط.

(٨) كذا وقعت هذه العبارة في هذا الموضع، وحقُّها أن تكون قبل ما سيأتي من قوله: والعرب تعاقب بين القاف والكاف، وبعد ذكر قراءة «تكهر» بالكاف، وفي الصحاح (كهر): قال الكسائي: كَهَره وقَهَره بمعنى.

تَقْهَر»: فلا تَحْتَقِرْ[(١)].

وقرأ النخَعيُّ والأشهب العُقَيليُّ: «تَكْهَرْ» بالكاف، وكذلك هو في مصحفِ ابنِ مسعود[(٢)]. فعلى هذا يَحتمِلُ أن يكون نَهْياً عن قَهْرِه بظُلِمْه وأَخْذِ مالِه. وخصَّ اليتيم لأنَّه لا ناصرَ له غيرُ الله تعالى، فغلَّظ في أمره بتغليظ العقوبةِ على ظالِمه.

والعربُ تُعاقِبُ بينَ الكافِ والقاف؛ النحَّاس: وهذا غلطٌ، إنَّما يقال: كَهَره: إذا اشتدَّ عليه وغَلَّظ.

وفي «صحيح» مسلم من حديث معاويةَ بنِ الحكم السُّلَميِّ، حين تكلَّم في الصلاة بردِّ السلام، قال: فبأبي هو وأمِّي! ما رأيتُ معلِّماً قبله ولا بعده أحسنَ تعليماً منه ـ يعني رسولَ الله ﷺ ـ فوالله ما كَهَرَني، ولا ضربني، ولا شتمني... الحديث[(٣)]. وقيل: القَهْر: الغَلَبةُ. والكَهْر: الزَّجْر.

الثانية: ودلَّتِ الآيةُ على اللُّطْفِ باليتيم، وبِرِّه والإحسانِ إليه؛ حتى قال قتادة: كن لليتيم كالأبِ الرَّحيم. وروِي عن أبي هريرةَ أنَّ رجلاً شَكَا إلى النبيِّ ﷺ قسوةَ قَلْبِه؛ فقال: «إنْ أردتَ أنْ يَلينَ، فامْسَحْ رأسَ اليتيم، وأَطْعِمِ المسكين»[(٤)].

وفي الصحيح عن أبي هريرةَ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافلُ اليتيمِ له أو لغيره كهاتين» وأشار بالسبَّابة والوسطى[(٥)].

ومن حديثِ ابنِ عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اليتيم إذا بكى اهتزَّ لبكائه عرشُ الرحمن، فيقولُ الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، مَن ذا الذي أبْكَى هذا اليتيمَ الذي غيَّبْتُ أباه في التراب. فتقول الملائكةُ: ربَّنا أنت أَعْلَمُ، فيقولُ الله تعالى لملائكته:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٩٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٥، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٩٥.

(٣) صحيح مسلم (٥٣٧) مطولاً، وهو عند أحمد (٢٣٧٦٢).

(٤) أخرجه أحمد (٧٥٧٦)، وإسناده ضعيف لجهالة الراوي عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) صحيح مسلم (٢٩٨٣)، وهو عند أحمد (٨٨٨١)، وسلف ٢/ ٢٣٠.

يا ملائكتي، اشْهَدوا أنَّ مَن أسْكَتَه وأرضاه أنْ أُرْضِيَه يومَ القيامة»[١]. فكان ابن عمر إذا رأى يتيماً مسح برأسه، وأعطاه شيئاً.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ضمَّ يتيماً فكان في نفقته، وكفاه مؤونَتَه، كان له حجاباً من النار يومَ القيامة، ومَن مسح برأسِ يتيمٍ كان له بكلِّ شعرةٍ حسنةٌ»[٢].

وقال أكثم بنُ صَيفيّ: الأذلَّاء أربعةٌ: النمَّام، والكذَّاب، والمَدْيونُ، واليتيم.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: لا تَزْجُزه. فهو نهيٌ عن إغلاظِ القول. ولكنْ رُدَّه ببَذْلٍ يَسيرٍ، أو ردٍّ جميل، واذكُر فَقْرَك؛ قاله قتادةُ وغيره[٣]. وروي عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعنَّ أحدُكم السائلَ، وأنْ يعطِيَه إذا سأل ولو رأى في يده قُلْبينِ من ذهب»[٤].

وقال إبراهيم بن أدهم: نِعْمَ القومُ السُّؤَّالُ؛ يحملون زادَنا إلى الآخرة.

وقال إبراهيم النَّخعيُّ: السائلُ بريدُ الآخرةِ، يَجيءُ إلى باب أحدِكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيءٍ.

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «رُدُّوا السائلَ ببَذْلٍ يسير، أو ردٍّ جميل، فإنَّه يأتيكم مَن ليس من الإنس ولا من الجنِّ، ينظرُ كيف صنيعُكم فيما خوَّلكم الله»[٥].

---

(١) أخرجه ابن عدي ٢/ ٧٢١ ، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان ٢/ ٢٩٩ من طريق سعيد بن المسيب عن عمر ﷺ، وهو عند ابن عدي مختصر. وفي إسناده الحسن بن أبي جعفر الجُفْري وهو ضعيف الحديث، كما ذكر الحافظ في التقريب. وسعيد بن المسيب لم يسمع من عمر. ينظر المراسيل لابن أبي حاتم ص٦٤ .

(٢) أخرجه ابن عدي ٣/ ١٠٩٧ ، وفي إسناده سليمان بن عمرو أبو داود النخعي، قال عنه البخاري: متروك، وقال يحيى: معروف بوضع الحديث، وقال أحمد: كان يضع الحديث. الميزان ٢/ ٢١٦ .

(٣) أخرجه عن قتادة ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما الدر المنثور ٦/ ٣٦٢ بلفظ: ردّ السائل برحمة ولين.

(٤) أخرجه البزار (٩٥٢ ـ كشف)، وابن عدي ٢/ ٧٣٣ . قال البزار: لا نعلمه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. اهـ . وفي إسناده الحسن بن علي الهاشمي، ضعفه أحمد والنسائي وأبو حاتم والدارقطني، وقال البخاري: منكر الحديث. الميزان ١/ ٥٠٥ . والقُلب: سوار المرأة. القاموس (قلب).

(٥) سلف ٤/ ٣٢٨ ، وذكرنا ثمة قول ابن الجوزي: هذا حديث لا أصل له.

وقيل: المرادُ بالسائل هنا: الذي يَسألُ عن الدِّين، أي: فلا تَنْهره بالغِلْظةِ والجَفْوة، وأجِبْه برفقٍ ولين؛ قاله سفيان[١]. قال ابن العربيّ[٢]: وأمّا السائلُ عن الدِّين فجوابُه فَرْضٌ على العالِم على الكفاية، كإعطاءِ سائلِ البِرِّ سواء. وقد كان أبو الدَّرْداءِ ينظرُ إلى أصحاب الحديث، ويبسطُ رداءه لهم، ويقول: مرحباً بأحبَّةِ رسولِ الله ﷺ[٣].

وفي حديثِ أبي هارون العَبْديّ، عن أبي سعيدٍ الخُدريّ، قال: كنَّا إذا أتينا أبا سعيد يقول: مَرْحَبًا بوصيةِ رسولِ الله ﷺ، إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الناس لكم تَبَعٌ، وإنَّ رجالاً يأتونكم من أقطارِ الأرضِ يتفقَّهون، فإذا أتَوْكم فاستوصُوا بهم خيراً»[٤]. وفي روايةٍ: «يأتيكم رجالٌ مِن قِبَلِ المَشْرِقِ...» فذكره[٥].

و«اليتيم» و«السائل» منصوبان بالفعل الذي بعده، وحقُّ المنصوبِ أن يكون بعد الفاءِ، والتقدير: مهما يكن من شيءٍ فلا تَقْهرِ اليتيم، ولا تنهر السائل[٦].

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سألتُ ربِّي مسألةً ودِدْتُ أنِّي لم أسألها، قلتُ: يا ربِّ، اتَّخذتَ إبراهيمَ خليلاً، وكلَّمْتَ موسى تكليماً، وسخَّرتَ مع داود الجبالَ يسبِّحْنَ، وأعطيتَ فلاناً كذا، فقال عزَّ وجلَّ: ألَمْ أجِدْكَ يتيماً فآويتُك؟ ألم أجِدْكَ ضالًّا فهديتُك؟ ألم أَجِدْكَ عائلاً فأغنيتُك؟ ألم أَشْرَحْ لك صدركَ؟ ألم أُوتِكَ ما لم أُوْتِ أحداً قبلك: خواتيمَ سورةِ البقرة، ألم أتَّخذك خليلاً كما اتَّخذتُ إبراهيمَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٥ .

(٣) ذكره ابن بشكوال في الصلة ص٤١٢ .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٥٠)، وأبو هارون العبدي اسمه عمارة بن جُوَين، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك، ومنهم مَن كذَّبه.

(٥) سنن الترمذي (٢٦٥١)، وهو أيضاً من طريق أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٢٤ .

خليلاً؟ قلتُ: بلى يا رب»[١].

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: انشُرْ ما أنْعمَ الله عليك بالشكر والثناء. والتحدُّثُ بنِعَم الله والاعترافُ بها شكرٌ. وروى ابنُ أبي نجيح عن مجاهد: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ قال: بالقرآن. وعنه قال: بالنبوَّة[٢]، أي: بلِّغ ما أُرْسِلْتَ به. والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والحُكْمُ عامٌّ له ولغيره.

وعن الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما قال: إذا أَصَبْتَ خيراً، أو عملتَ خيراً، فحدِّثْ به الثِّقةَ من إخوانك[٣].

وعن عمرو بن ميمون قال: إذا لقي الرجل من إخوانه مَن يثقُ به، يقول له: رَزَقَ الله من الصلاة البارحةَ كذا وكذا[٤].

وكان أبو فراسٍ عبدُ الله بنُ غالب[٥] إذا أصبح يقول: لقد رزقني الله البارحةَ كذا، قرأتُ كذا، وصلَّيتُ كذا، وذكرتُ الله كذا، وفعلتُ كذا. فيقال له: يا أبا فِراس، إنَّ مثلك لا يقولُ هذا! قال: يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وتقولون أنتم: لا تحدّثْ بنعمة الله[٦]! ونحوه عن أيوبَ السختِيانيِّ وأبي رجاءٍ العُطارِديِّ ﵄[٧].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢٨٩)، والحاكم ٢/ ٥٢٦، والواحدي في أسباب النزول ص٤٩١-٤٩٢، وفي الوسيط ٤/ ٥١١-٥١٢، والبغوي ٤/ ٤٩٩. وليس فيه عندهم: ألم أوتك... كما اتخذت إبراهيم خليلاً.

(٢) أخرج الأول عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢. وأخرج الثاني الطبري ٢٤/ ٤٩٠-٤٩١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢. وذكره الرازي ٣١/ ٢٢١ ثم قال: إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء، وظن أن غيره يقتدي به.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٢٥، والحاكم ٢/ ٥٢٧.

(٥) الحُدَّاني البصري العابد، توفي سنة (٨٣ هـ). تهذيب التهذيب ٢/ ٤٠١.

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٥٧.

(٧) ذكره عنهما ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٣٦.

وقال بكر بن عبد الله المُزَنيُّ: قال النبيُّ ﷺ: «مَن أُعطِيَ خيراً فلم يُرَ عليه، سمِّي بغيضَ الله، مُعادياً لنِعَم الله»(١).

وروى الشعبيُّ عن النعمان بن بشير قال: قال النبيُّ ﷺ: «مَن لم يَشْكُرِ القليلَ لم يَشْكُرِ الكثير، ومَن لم يشكر الناسَ لم يشكرِ الله، والتحدُّثُ بالنِّعمِ شكرٌ، وتَرْكُه كفرٌ، والجماعةُ رحمةٌ، والفُرْقةُ عذابٌ»(٢).

وروى النسائيُّ عن مالك بن نَضْلةَ الجُشَميِّ قال: كنتُ عند رسولِ الله ﷺ جالساً، فرآني رَثَّ الثيابِ فقال: «أَلَكَ مالٌ؟» قلتُ: نعم يا رسول الله، مِن كلِّ المال. قال: «إذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ أثرُهُ عليك»(٣).

وروى أبو سعيد الخدريُّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ، ويحبُّ أن يرى أثَر نعمته على عبده»(٤).

فصل: يكبِّر القارئُ في روايةِ البزِّيِّ عن ابن كثير، وقد رواه مجاهدٌ عن ابن عباس، عن أُبيِّ بن كعب، عن النبيِّ ﷺ: إذا بلغ آخِرَ «والضُّحى» كبَّر بين كلِّ سورةٍ تكبيرةً، إلى أن يختم القرآن. ولا يَصِلُ آخِرَ السورةِ بتكبيرةٍ، بل يفصلُ بينهما بسكتة(٥). وكأنَّ المعنى في ذلك أنَّ الوحي تأخَّر عن النبيِّ ﷺ أياماً، فقال ناسٌ من

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العيال (٣٦٤).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٨٤٤٩). وإسناده ضعيف كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦٢ . وقوله: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» له شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٧٥٠٤)، وأبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) وقال: حسن صحيح.

(٣) سنن النسائي (المجتبى) ٨/ ١٨٠-١٨١ .

(٤) أخرجه أبو يعلى (١٠٥٥)، وفي إسناده عطية العوفي وهو ضعيف. ويشهد لجزئه الأول حديث ابن مسعود ﷺ عند أحمد (٣٧٨٩)، ومسلم (٩١). ويشهد لجزئه الثاني حديث عبد الله بن عمرو عند الترمذي (٢٨١٩). قال الترمذي. حديث حسن.

(٥) وهذه رواية النقاش، عن أبي ربيعة، عن البزي، كما ذكر أبو عمرو الداني في التيسير ص٢٢٦ ، إلا أنه ذكر أن الأحاديث الواردة عن المكيين دالةٌ على أنه يَصِلُ التكبير بآخر السورة؛ قال: لأن فيها: «مع»، وهي تدل على الصحبة والاجتماع.

المشركين: قد ودَّعه صاحبُه وقَلاه، فنزلت هذه السورةُ، فقال: «الله أكبر»[١].

قال مجاهد: قرأتُ على ابنِ عباس، فأمرني به، وأخبرني به عن أبيٍّ، عن النبيِّ ﷺ.

ولا يكبِّر في قراءةِ الباقين؛ لأنَّها ذرِيعةٌ إلى الزيادة في القرآن.

قلت: القرآنُ ثبتَ نقلاً متواتراً، سورُه وآياتُه وحروفُه؛ لا زيادةَ فيه ولا نقصان؛ فالتكبيرُ على هذا ليس بقرآن. فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوبُ في المصحف بخطِّ المصحفِ ليس بقرآنٍ، فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب. أمَا إنه ثبتَ سنَّةً بنقلِ الآحاد، فاستحبَّه ابنُ كثير، لا أنَّه أوْجَبه فخطَّأ مَن تَرَكه.

ذكر الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظُ في كتاب «المستدرك» له على البخارِيِّ ومسلم: حدَّثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئُ الإمامُ بمكة في المسجد الحرام، قال: حدَّثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغُ، قال: حدَّثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزةَ: سمعتُ عكرمةَ بنَ سليمان يقول: قرأتُ على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، فلمَّا بلغتُ «والضحى» قال لي: كبِّر عند خاتمةِ كلِّ سورة حتى تختم، فإنِّي قرأتُ على عبد الله بن كثير فلمَّا بلغتُ «والضحى» قال: كبِّر حتى تختم. وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد [فأمره بذلك]، وأخبره مجاهدٌ أنَّ ابن عباس أمَره بذلك، وأخبره ابن عباس أنَّ أُبيّ ابنَ كعب أمره بذلك، وأخبره أُبيّ بن كعب أنَّ رسول الله ﷺ أمره بذلك. هذا حديثٌ صحيحٌ ولم يخرِّجاه[٢].

---

(١) بنحوه في الوسيط ٤/ ٥١٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠١ .

(٢) المستدرك ٣/ ٣٠٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وقد تعقبه الذهبي بقوله: البزي قد تُكُلِّم فيه. وأخرجه أيضاً الفاكهي في أخبار مكة (١٧٤٤)، والداني في التيسير ص٢٢٧ ، وينظر جامع البيان للداني ٢/ ٥٠١-٥٠٥ . وذكره ابن كثير في بداية تفسير سورة الضحى وقال: فهذه سنَّةٌ تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي من ولد القاسم بن أبي بزَّة، وكان إماماً في القراءات، فأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي، وقال: لا أحدث عنه، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث. لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة فقال: أحسنت وأصبت السنة، وهذا يقتضي صحة هذا الحديث.

تفسير سورة الضحى

وهى مكية .

روينا من طريق أبى الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى بَزَةَ المقرئ قال : قرأت على عكرمة بن سليمان ، وأخبرنى أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عبَّاد ، فلما بلغت ﴿وَالضُّحَى﴾ قالا لى: كَبِر حتى تختم مع خاتمة كل سورة، فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك. وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك. وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبى بن كعب فأمره بذلك، وأخبره أبى أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك [(١)].

فهذه سُنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزى ، من ولد القاسم بن أبى بزة ، وكان إماماً فى القراءات ، فأما فى الحديث فقد ضَعَّفَه أبو حاتم الرازى وقال : لا أحدث عنه ، وكذلك أبو جعفر العقيلى قال : هو منكر الحديث . لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى شرح الشاطبية عن الشافعى أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير فى الصلاة ، فقال له : أحسنت وأصبت السنة . وهذا يقتضى صحة هذا الحديث .

ثم اختلف القراء فى موضع هذا التكبير وكيفيته ، فقال بعضهم : يكبر من آخر ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ . وقال آخرون : من آخر ﴿ وَالضُّحَى ﴾ . وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول : الله أكبر ويقتصر ، ومنهم من يقول الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر .

وذكر الفراء فى مناسبة التكبير من أول سورة « الضحى » : أنه لما تأخر الوحى عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة [ثم][(٢)] جاءه الملك فأوحى إليه : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ السورة بتمامها، كبر فرحاً وسروراً . ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف ، فالله أعلم [(٣)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ

(١) ورواه الحافظ الذهبى فى ميزان الاعتدال (١/ ١٤٥) ثم قال: « هذا حديث غريب ، وهو مما أنكر على البزى ، قال أبو حاتم : هذا منكر » .

(٢) زيادة من م .

(٣) والصواب أن هذا مما لم يصح فيه شيء عن النبى ﷺ ولا عن صحابته ، رضى الله عنهم ، وما روى فيها مما لا تقوم به الحجة ، وشيخ الإسلام ــ ابن تيمية ــ قد تكلم على هذا التكبير كلاماً شديداً فى الفتاوى (١٣/ ٤١٧ــ٤١٩) ، وانظر : الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٣١٠) ومرويات دعاء ختم القرآن لبكر أبو زيد (ص٦) ومن كتابه استفدت هذا ، فجزاه الله خيراً .

ضَالاً فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن الأسود بن قيس قال : سمعت جُنْدُبا يقول : اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (١) .

رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، من طرق ، عن الأسود بن قيس ، عن جُنْدُب ـــ هو ابن عبد الله البَجلى ثم العَلَقى (٢) به (٣) ، وفى رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس : سمع جندباً قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون: وُدِّع محمد . فأنزل الله : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (٤).

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله (٥) الأودى قالا : حدثنا أبو أسامة ، حدثنى سفيان ، حدثنى الأسود بن قيس ، أنه سمع جندباً يقول : رمى رسول الله ﷺ بحجر فى أصبعه فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت   وفى سبيل الله ما لقيت ؟

قال : فمكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم ، فقالت له امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك (٦) . فنزلت : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ . والسياق لأبى سعيد .

قيل : إن هذه المرأة هى : أم جميل امرأة أبى لهب ، وذكر أن إصبعه ، عليه السلام ، دميت . وقوله ـــ هذا الكلام الذى اتفق أنه موزون ـــ ثابت فى الصحيحين (٧)،ولكن الغريب هاهنا جعله سبباً لتركه القيام ، ونزول هذه السورة . فأما ما رواه ابن جرير :

حدثنا ابن أبى الشوارب ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا سليمان الشيبانى ، عن عبد الله ابن شداد : أن خديجة قالت للنبى ﷺ:ما أرى ربك إلا قد قلاك . فأنزل الله : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

وقال أيضا : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وَكِيع ، عن هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه قال : أبطأ جبريل على النبى ﷺ ، فجزع جزعاً شديداً ، فقالت خديجة : إنى أرى ربك قد قلاك مما نَرى من جزعك. قال : فنزلت : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ إلى آخرها (٨) .

---

(١) المسند (٤/ ٣١٢) .

(٢) فى أ : « العلقمى » .

(٣) صحيح البخارى برقم (١١٢٤، ١١٢٥، ٤٩٨٣، ٤٩٥٠، ٤٩٥١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٧) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨١) وسنن ابن ماجة برقم (٣٢٥٠) .

(٤) هذه الرواية فى مسلم والترمذى .

(٥) فى أ : « وعمرو بن عبد الله بن عبد الله الأودى » .

(٦) فى م : « قد تركك » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٢٨٠٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٦) .

(٨) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٤٨) .

فإنه حديث مرسل من [هذين الوجهين] (١) ولعل ذكر خديجة ليس محفوظاً ،أو قالته على وجه التأسف والتحزن ، والله أعلم .

وقد ذكر بعض السلف ــ منهم ابن إسحاق ــ أن هذه السورة هى التى أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ ، حين تبدى له فى صورته التى خلقه الله عليها ، ودنا إليه وتدلى منهبطاً عليه وهو بالأبطح، ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ﴾ [النجم: ١٠]. قال : قال له هذه السورة : ﴿ **وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ** ﴾ .

قال العوفى ، عن ابن عباس : لما نَزَلَ على رسول الله ﷺ القرآن ، أبطأ عنه جبريل أياما ، فتغير بذلك ، فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه . فأنزل الله : ﴿ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ** ﴾ .

وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ، ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ** ﴾ أى : سكن فأظلم وادلَهَم . قاله مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغيرهم . وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا ، كما قال : ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ** ﴾ [الليل: ١ ، ٢] ،وقال : ﴿ **فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [الأنعام: ٩٦] .

وقوله : ﴿ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ** ﴾ أى : ما تركك ، ﴿ **وَمَا قَلَى** ﴾ أى : وما أبغضك ، ﴿ **وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى** ﴾ أى : والدار الآخرة خير لك من هذه الدار . ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس فى الدنيا ، وأعظمهم لها إطراحاً ، كما هو معلوم [بالضرورة] (٢) من سيرته . ولما خُيِّرَ ، عليه السلام ، فى آخر عمره بين الخلد فى الدنيا إلى آخرها ثم الجنة ،وبين الصيرورة إلى الله عز وجل ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا المسعودى ، عن عمرو بن مرة ، عن إبراهيم النَّخعى ، عن علقمة ، عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ قال : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير ، فأثر فى جنبه ، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت : يا رسول الله ،ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ما لى وللدنيا ؟ ! ما أنا والدنيا ؟ ! إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب ظَلّ تحت شجرة ، ثم راح وتركتها (٣) » .

ورواه الترمذى وابن ماجة ، من حديث المسعودى به (٤) . وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقوله : ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى** ﴾ أى : فى الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه فى أمته ، وفيما أعدَّه له من الكرامة ، ومن جملته نهر الكوثر الذى حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، وطينه [من](٥) مسك أذفر ، كما سيأتى .

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعى ، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر المخزومى ، عن

---

(١) زيادة من م ، أ . (٢) زيادة من م . (٣) فى أ : « وتركها » .

(٤) المسند (١/ ٣٩١) وسنن الترمذى برقم (٢٣٧٧) وسنن ابن ماجة برقم (٤١٠٩) .

(٥) زيادة من أ .

على بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال : عرض على رسول الله ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً، فسر بذلك ، فأنزل الله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ فأعطاه فى الجنة ألف ألف قصر ، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدم . رواه ابن جرير [(١)] من طريقه ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس : ومثلُ هذا ما يقال إلا عن توقيف .

وقال السدى ، عن ابن عباس : من رضا محمد ﷺ ألا يدخل أحد من أهل بيته النار . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

وقال الحسن : يعنى بذلك الشفاعة . وهكذا قال أبو جعفر الباقر .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا معاويةُ بن هشام ، عن على بن صالح ، عن زيد بن أبى زياد، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّا أهلُ بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ » [(٢)] .

ثم قال تعالى يعدد نعَمه على عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ ، وذلك أن أباه تُوفّى وهو حَملٌ فى بطن أمه ، وقيل : بعد أن ولد ، عليه السلام ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين . ثم كان فى كفالة جده عبد المطلب ، إلى أن توفى وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب . ثم لم يزل يحوطه وينصره ويَرفع من قَدره ويُوقّره ، ويكفّ عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحُسن تدبيره ، إلى أن تُوفى أبو طالب قبل الهجرة بقليل ، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهالهم ، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج ، كما أجرى الله سُنَّته على الوجه الأتم والأكمل . فلما وصل إليهم أوَوه ونَصَرُوه وحاطوه وقاتلوا بين يديه ، رضى الله عنهم أجمعين ، وكل هذا من حفظ الله له وكَلاءته وعنايته به .

وقوله : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ كقوله : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] ومنهم من قال [إن] [(٣)] المراد بهذا أنه ، عليه السلام ، ضل فى شعاب مكة وهو صغير ، ثم رجع . وقيل : إنه ضل وهو مع عمه فى طريق الشام ، وكان راكباً ناقة فى الليل ، فجاء إبليس يعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل ، فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق . حكاهما البغوى .

---

(١) فى أ : « رواه ابن جرير وابن أبى حاتم » .

(٢) ورواه البغوى فى شرح السنة (١٤/ ٢٤٨) من طريق ابن أبى شيبة فذكره دون الآية ، ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٥/ ٢٣٦) بهذا الطريق ولم يذكر الآية ، ولعل ذكرها وقع فى كتاب التفسير ، ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٤٠٨٢) عن عثمان بن أبى شيبة ، عن معاوية بن هشام به ، وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٦٢) : « هذا إسناد فيه يزيد بن أبى زياد الكوفى مختلف فيه » .

(٣) زيادة من م .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ أى : كنت فقيراً ذا عيال ، فأغناك الله عمن سواه ، فجمع له بين مقامى ، الفقير الصابر والغنى الشاكر ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ قال: كانت هذه منازل الرسول ﷺ قبل أن يبعثه الله ، عز وجل . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

وفى الصحيحين ـ من طريق عبد الرزاق ـ عن مَعْمَر ،عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حَدّثنا أبو هُرَيرة قال :قال رسول الله ﷺ:« ليس الغنى عن كثرة العَرَض،ولكن [١] الغنى غنى النفس» [٢].

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً ، وقنعه [٣] الله بما آتاه » [٤] .

ثم قال : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴾ أى : كما كنت يتيماً فآواك الله فلا تقهر اليتيم ، أى : لا تذله وتنهره وتهنه ، ولكن أحسِنْ إليه ، وتلطف به .

قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم.

﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ أى :وكما كنت ضالاً فهداك الله ،فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد .

قال ابن إسحاق : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ أى : فلا تكن جباراً ، ولا متكبراً ، ولا فَحَّاشا ، ولا فَظًّا على الضعفاء من عباد الله .

وقال قتادة : يعنى رَد المسكين برحمة ولين .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أى : وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله ، فحدث بنعمة الله عليك ، كما جاء فى الدعاء المأثور النبوى:« واجعلنا شاكرين لنعمتك [٥] مثنين بها ، قابليها ، وأتمها علينا » .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَة ، حدثنا سعيد بن إياس الجُرَيرى ، عن أبى نضرة قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدّث بها .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا منصور بن أبى مزاحم ، حدثنا الجراح بن مَليح ، عن أبى عبد الرحمن ، عن الشعبى ، عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ على المنبر : « من لم يشكر القليل ، لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله . والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر . والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب » [٦] إسناد ضعيف .

---

(١) فى م : « وإنما » .

(٢) لم أقع عليه فى الصحيحين من هذا الطريق ، وقد جاء فيهما من طرق أخر عن أبى هريرة ، انظر : صحيح البخارى برقم (٦٤٤٦) وصحيح مسلم برقم (١٠٥١) .

(٣) فى أ : « ومتعه » .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٠٥٤) .

(٥) فى أ : « لنعمك » .

(٦) زوائد المسند (٢٧٨/٤) .

وفى الصحيحين ، عن أنس ، أن المهاجرين قالوا : يا رسول الله ، ذهب الأنصار بالأجر كله . قال : « لا ، ما دعوتم الله لهم ، وأثنيتم عليهم » (١) .

وقال أبو داود : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الربيع بن مسلم ، عن محمد بن زياد ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » .

ورواه الترمذى عن أحمد بن محمد ، عن ابن المبارك ، عن الربيع بن مسلم (٢) ، وقال : صحيح .

وقال أبو داود : حدثنا عبد الله بن الجراح ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر ، عن النبى ﷺ قال : « من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره » . تفرد به أبو داود (٣) .

وقال أبو داود : حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا بشر(٤) ، حدثنا عمارة بن غَزْيَة ، حدثنى رجل من قومى، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعطَى عَطاء فَوَجَد فَلْيَجزْ به ، فإن لم يجد فَلْيُثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره » . قال أبو داود : ورواه يحيى بن أيوب، عن عُمارة بن غَزية ،عن شرحبيل عن جابر ــ كرهوه فلم يسموه . تفرد به أبو داود (٥).

وقال مجاهد : يعنى النبوة التى أعطاك ربك . وفى رواية عنه : القرآن .

وقال ليث ، عن رجل ، عن الحسن بن على : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قال : ما عملت من خير فَحَدث إخوانك .

وقال محمد بن إسحاق : ما جاءك الله (٦) من نعمة وكرامة من النبوة فحدّث بها واذكرها ، وادع إليها . وقال : فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله ، وافترضت عليه الصلاة ، فصلى .

آخر تفسير سورة « الضحى » [ولله الحمد] (٧)

---

(١) لم أقع عليه فى الصحيحين ، ورواه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ٢٠٠) .
(٢) سنن أبى داود برقم (٤٨١١) وسنن الترمذى برقم (١٩٥٤) .
(٣) سنن أبى داود برقم (٤٨١٤) .
(٤) فى أ : « بشير » .
(٥) سنن أبى داود برقم (٤٨١٣) .
(٦) فى م : « ما جاءك من الله » .
(٧) زيادة من أ .

٩٣ – سورة الضحى
(مكية وهى إحدى عشرة آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ ٩٣ الضحىٰ

وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ ٩٣ الضحىٰ

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ٩٣ الضحىٰ

وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ٩٣ الضحىٰ

﴿ سورة الضحى مكية وآيها إحدى عشرة ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (والضحى) هو وقت ارتفاع الشمس وصدر النهار قالوا تخصيصه بالإقسام به لأنها الساعة التى كلم فيها موسى عليه السلام وألقى فيها السحرة سجداً لقوله تعالى وأن يحشر الناس ضحى وقيل أريد به النهار كما فى قوله تعالى أن يأتيهم بأسنا ضحى فى مقابلة بياتاً (والليل) أى جنس
٢ الليل (إذا سجى) أى سكن أهله أو ركد ظلامه من سجا البحر سجواً إذا سكنت أمواجه ونقل عن قتادة ومقاتل وجعفر الصادق أن المراد بالضحى هو الضحى الذى كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام وبالليل ليلة المعراج وقوله تعالى (ما ودعك ربك) جواب القسم أى ماقطعك قطع المودع وقرىء
٣ بالتخفيف أى ماتركك (وما قلى) أى وما أبغضك وحذف المفعول إما للاستغناء عنه بذكره من قبل أو للقصد إلى نفى صدور الفعل عنه تعالى بالكلية مع أن فيه مراعاة للفواصل . روى أن الوحى تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما لتركه الاستثناء كما مر فى سورة الكهف أو لزجره سائلا ملحاً فقال المشركون إن محمداً ودعه ربه وقلاه فنزلت رداً عليهم وتبشيراً له عليه الصلاة والسلام بالكرامة الحاصلة والمترقبة كما يشعر به إيراد اسم الرب المنبىء عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام وحيث تضمن ما سبق من نفى التوديع والقلى أنه تعالى يواصله بالوحى والكرامة فى الدنيا بشره عليه الصلاة والسلام بأن ما سيؤتيه فى الآخرة أجل وأعظم من ذلك فقيل
٤ (وللآخرة خير لك من الأولى) لما أنها باقية صافية عن الشوائب على الإطلاق وهذه فانية مشوبة بالمضار وما أوتى عليه الصلاة والسلام من شرف النبوة وإن كان مما لايعادله شرف ولا يدانيه فضل

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ٩٣ الضحىٰ

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ ٩٣ الضحىٰ

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ٩٣ الضحىٰ

لكنه لا يخلو فى الدنيا من بعض العوارض القادحة فى تمشية الأحكام مع أنه عند ما أعد له عليه الصلاة والسلاة فى الآخرة من السبق والتقدم على كافة الأنبياء والرسل يوم الجمع يوم يقوم الناس لرب العالمين وكون أمته شهداء على سائر الأمم ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السنية التى لا تحيط بها العبارة بمنزلة بعض المبادى بالنسبة إلى المطالب وقيل المراد بالآخرة عاقبة أمره عليه الصلاة والسلام أى لنهاية أمرك خير من بدايته لاتزال تتزايد قوة

٥ وتتصاعد رفعة وقوله تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) عدة كريمة شاملة لما أعطاه الله تعالى فى الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين وظهور الأمر وإعلاء الدين بالفتوح الواقعة فى عصره عليه الصلاة والسلام وفى أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من الملوك الإسلامية وفشو الدعوة والإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ولما ادخر له من الكرامات التى لايعلمها إلا الله تعالى وقد أنبأ ابن عباس رضى الله عنهما عن شمة منها حيث قال له عليه الصلاة والسلام فى الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك واللام للابتداء دخلت الخبر لتأكيد مضمون الجملة والمبتدأ محذوف تقديره ولأنت سوف يعطيك الخ لا للقسم لأنها لاتدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة وجمعها مع سوف للدلالة على أن الإعطاء كائن لامحالة وإن تراخى لحكمة وقيل هى للقسم وقاعدة التلازم بينها وبين نون التأكيد قد استثنى النحاة منها صورتين إحداهما أن يفصل بينها وبين الفعل بحرف التنفيس كهذه الآية وكقوله والله لسأعطيك والثانية أن يفصل بينهما بمعمول الفعل كقوله تعالى لإلى الله تحشرون وقال أبو على الفارسى ليست هذه اللام هى التى فى قولك إن زيداً لقائم بل هى التى فى قولك لأقومن ونابت سوف عن إحدى نونى التأكيد فكأنه قيل وليعطينك وكذلك اللام فى قوله

٦ تعالى وللآخرة الخ وقوله تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى) تعديد لما أفاض عليه عليه الصلاة والسلام من أول أمره إلى ذلك الوقت من فنون النعماء العظام ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقب الموعود فيطمئن قلبه وينشرح صدره والهمزة لإنكار النفى وتقرير المنفى على أبلغ وجه كأنه قيل قد وجدك الخ والوجود بمعنى العلم ويتيما مفعوله الثانى وقيل بمعنى المصادفة ويتيما حال من مفعوله . روى أن أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته وذلك إيواؤه وقرىء فأوى وهو إما من أواه بمعنى آواه أو من أوى له إذا

٧ رحمه وقوله تعالى (ووجدك ضالا) عطف على مايقتضيه الإنكار السابق كما أشير إليه أو على المضارع المنفى بلم داخل فى حكمه كأنه قيل أما وجدك يتيما فآوى ووجدك غافلا عن الشرائع التى لا تهتدى

وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ٩٣ الضحىٰ

فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ٩٣ الضحىٰ

وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ٩٣ الضحىٰ

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ٩٣ الضحىٰ

إليها العقول كما فى قوله تعالى ما كانت تدرى ماالكتاب وقيل ضل فى صباه فى بعض شعاب مكة فرده أبو جهل إلى عبد المطلب وقيل ضل مرة أخرى وطلبوه فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً وتضرع إلى الله تعالى فسمعوا منادياً ينادى من السماء يامعشر الناس لاتضجوا فإن لمحمد رباً لايخذله ولا يضيعه وإن محمداً بوادى تهامة عند شجر السمر فسار عبد المطلب وورقة بن نوفل فإذا النبى صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة يلعب بالأغصان والأوراق وقيل أضلته مرضعته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب وقيل ضل فى طريق الشام حين خرج به أبو طالب . يروى أن إبليس أخذ بزمام ناقته فى ليلة ظلماء فعدل به عن الطريق فجاء جبريل عليه السلام فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهند ورده إلى القافلة (فهدى) فهداك إلى مناهج الشرائع المنطوية فى تضاعيف ما أوحى إليك من الكتاب المبين وعلمك مالم تكن تعلم أو أزال ضلالك عن جدك أو عمك (ووجدك عائلا) أى فقيراً وقرىء عيلا وقرىء عديماً (فأغنى) فأغناك بمال خديجة أو بمال حصل لك من ربح التجارة أو بمال أفاء عليك من الغنائم قال عليه الصلاة والسلام جعل رزقى تحت ظل رمحى وقيل قنعك وأغنى قلبك (فأما اليتيم فلا تقهر) فلا تغلبه على ماله وقال مجاهد لاتحتقر وقرىء فلا تكهر أى فلا تعبس فى وجهه (وأما السائل فلا تنهر) فلا تزجر ولا تغلظ له القول بل رده رداً جميلا قال إبراهيم بن أدهم نعم القول السؤال يحملون زادنا إلى الآخرة وقال إبراهيم النخعى السائل يريد الآخرة يجىء إلى باب أحدكم فيقول أتبعثون إلى أهليكم بشىء وقيل المراد بالسائل ههنا الذى يسأل عن الدين (وأما بنعمة ربك فحدث) بشكرها وإشاعتها وإظهاراً آثارها وأحكامها أريد بها ما أفاضه الله تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من فنون النعم التى من جملتها النعم المعدودة الموجودة منها والموعودة والمعنى إنك كنت يتيما وضالا وعائلا فآواك الله تعالى وهداك وأغناك فمهما يكن من شىء فلا تنس حقوق نعمة الله تعالى عليك فى هذه الثلاث واقتد بالله تعالى وأحسن كما أحسن الله إليك فتعطف على اليتيم فآوه وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولا تزجره عن بابك وحدث بنعمة الله كلها وحيث كان معظمها نعمة النبوة فقد اندرج تحت الأمر هدايته عليه الصلاة والسلام للضلال وتعليمه للشرائع والأحكام حسبما هداه الله عز وجل وعلمه من الكتاب والحكمة . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الضحى جعله الله تعالى فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل .



مكية وآيها إحدى عشرة آية بلا خلاف. ولما ذكر سبحانه فيما قبلها ﴿وسيجنبها الأتقى﴾ [الليل: ١٧] وكان سيد الأتقين رسول الله ﷺ، عقب سبحانه ذلك بذكر نعمه عز وجل عليه ﷺ وقال الإمام: لما كانت الأولى سورة أبي بكر رضي الله تعالى عنه وهذه سورة رسول الله ﷺ عقب جل وعلا بها ولم يجعل بينهما واسطة ليعلم أن لا واسطة بين رسوله ﷺ والصديق رضي الله تعالى عنه، وتقديم سورة الصديق على سورته عليه الصلاة والسلام لا يدل على أفضليته منه ﷺ ألا ترى أنه تعالى أقسم أولاً بشيء من مخلوقاته سبحانه ثم أقسم بنفسه عز وجل في عدة مواضع منها السورة السابقة على ما علمت، والخدم قد تتقدم بين يدي السادة وكثير من السنن أمر بتقديمه على فروض العبادة ولا يضر النور تأخره عن أغصانه ولا السنان كونه في أطراف مرّانه ثم إن ما ذكره زهرة ربيع لا تتحمل الفرك كما لا يخفى.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾

﴿بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم * والضحى﴾ تقدم الكلام فيه والمراد به هنا وقت ارتفاع الشمس الذي يلي وقت بروزها للناظرين دون ضوئها وارتفاعها لأنه أنسب بما بعد. وتخصيصه بالإقسام به لأنه شباب النهار وقوله فيه قوة غير قريبة من ضدها. ولذا عد شرفاً يومياً للشمس وسعداً ولأنه على ما قالوا الساعة التي كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام وألقى فيه السحرة سجداً لقوله تعالى ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ [طه: ٥٩] ففيه مناسبة للمقسم عليه وهو أنه تعالى لم يترك النبي ﷺ ولم يفارقه إلطافه تعالى وتكليمه سبحانه. وقيل المراد به النهار كما في قوله تعالى ﴿أن يأتيهم بأسنا ضحى﴾ [الأعراف: ٩٨] واعترض بالعرق فإنه وقع هناك في مقابلة البيات وهو مطلق الليل، وهنا في مقابلة الليل مقيداً معنى باشتداد ظلمته فالمناسب أن يراد به وقت ارتفاعه وقوة إضاءته. وأجيب بمنع دلالة القيد على الاشتداد وستسمع إن شاء الله تعالى ما في ذلك وأيًا ما كان فالظاهر أن المراد الجنس أي وجنس الضحى ﴿وَاللَّيْلِ﴾ أي وجنس الليل ﴿إِذَا سَجَى﴾ أي سكن أهله

على أنه من السجو وهو السكون مطلقاً كما قال غير واحد والإسناد مجازي أو هو على تقدير المضاف كما قيل، ونحوه ما روي عن قتادة أي سكن الناس والأصوات فيه وهذا يكون في الغالب فيما بين طرفيه أو بعد مضي برهة من أوله أو ركد ظلامه من سجا البحر سكنت أمواجه. قال الأعشى:

وما ذنبنا أن جاش بحر ابن عمكم ... وبحرك ساج لا يواري الدعامصا

فالسجو قيل على هذا في الأصل سكون الأمواج ثم عم، والمراد بسكون ظلامه عدم تغيره بالاشتداد والتنزيل أي فيما يحس ويظهر وذلك إذا كمل حساً بوصول الشمس إلى سمت القدم وقبيله وبعيده. وصرح باعتبار الاشتداد ابن الأعرابي حيث قال: سجا الليل اشتد ظلامه. وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن جبير أنه قال: أي إذا أقبل فغطى كل شيء. وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس تفسير سجا بأقبل بدون ذكر التغطية، وأخرجاهما وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً أنه قال: سجا إذا ذهب، وكلا التفسيرين خلاف المشهور. وشاع ليل ساكن أو ساج لما لا ريح فيه ووصفه بذلك أعني السكون قيل على الحقيقة كما إذا قيل: ليل لا ريح فيه، ولا يقال إن الساكن هو الريح بالحقيقة لأن السكون عليها حقيقة محال لأنه هواء متحرك ثم إنهم يقولونه لما لا ريح فيه لا لما سكن ريحه والتحقيق أن يقال إن السكون على تفسيريه أعني عدم الحركة عما من شأنه الحركة أو كونين في حيّز واحد لا يصح على الليل لأنه زمان خاص، لكن لما كان سكون الهواء بمنزلة عدم له في العرف العامي لعدم الإحساس أو لتضمنه عدم الريح لا الهواء قيل ليل ساج وساكن. وصف الليل على الحقيقة أي لا إسناد فيه إلى غير ملائم على أنه يحتمل أن يجعل السكون بهذا المعنى حقيقة عرفية، وجوز حمل ما في الآية على هذا الشائع ولعل التقييد بذلك لأن الليل الذي لا ريح فيه أبعد عن الغوائل. وقد ذكر بعض الفقهاء أن الريح الشديدة ليلاً عذر من أعذار الجماعة. ونقل عن قتادة ومقاتل أن المراد بالضحى هو الضحى الذي كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام، وبالليل ليلة المعراج. ومن الناس من فسر الضحى بوجهه ﷺ بشعره عليه الصلاة والسلام كما ذكر الإمام، وقال: لا استبعاد فيه وهو كما ترى. ومثله ما قيل: الضحى ذكور أهل بيته عليه الصلاة والسلام والليل إناثهم وقال الإمام يحتمل أن يقال الضحى رسالته ﷺ والليل زمان احتباس الوحي فيه لأن في حال النزول حصل الاستئناس وفي زمان الاحتباس حصل الاستيحاش، أو الضحى نور علمه تعالى الذي يعرف المستور من الغيوب والليل عفوه تعالى الذي به يستر جميع العيوب، أو الضحى إقبال الإسلام بعد أن كان غريباً والليل إشارة إلى أنه سيعود غريباً، أو الضحى كمال العقل والليل حال الموت، أو الضحى علانيته عليه الصلاة والسلام التي لا يرى الخلق عليها عيباً والليل سره ﷺ لا يعلم عالم الغيب عليها عيباً انتهى. ولا يخفى أنه ليس من التفسير في شيء وباب التأويل والإشارة يدخل فيه أكثر من ذلك. وتقديم الضحى على الليل بناء على ما قلنا أولاً لرعاية شرفه لما فيه من ظهور زيادة النور وللنور شرف ذاتي على الظلمة لكونه وجودياً أو لكثرة منافعه أو لمناسبته لعالم الملائكة فإنها نورانية، وتقديم الليل في السورة السابقة لما فيه من الظلمة التي هي لعدميتها أصل للنور الحادث بإزالتها لأسباب حادثة، وقيل تقديمه هناك لأن السورة في أبي بكر وهو قد سبقه كفر، وتقديم الضحى هنا لأن السورة في رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو ﷺ لم يسبقه ذلك. وتخصيصه تعالى الوقتين بالإقسام قيل ليشير سبحانه بحالهما إلى حال ما وقع له عليه الصلاة والسلام ويؤيد عز وجل نفي ما توهم فيه فكأنه تعالى يقول: الزمان ساعة فساعة ساعة ليل وساعة نهار ثم تارة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار وأخرى بالعكس فلا الزيادة لِهوى ولا النقصان لِقلى بل كل لحكمة، وكذا أمر الوحي مرة إنزال وأخرى حبس فلا كان الإنزال عن هوى ولا الحبس عن قلى بل كل لحكمة. وقيل ليسلّي عز وجل بحالهما حبيبه عليه

الصلاة والسلام كأنه سبحانه يقول: انظر إلى هذين المتجاورين لا يسلم أحدهما من الآخر بل الليل يغلب تارة والنهار أخرى فكيف تطمع أن تسلم من الخلق؟ والقولان مبنيان على أن المراد بالضحى النهار كله وبالليل إذا سجى جميع الليل وتخصيص الضحى على ما سمعت أولاً لما سمعت وتخصيص الليل بناءً على أن المراد وقت اشتداد الظلمة قيل لأنه وقت خلو المحب بالمحبوب والأمن من كل واش ورقيب. وقال الطيبي طيب الله تعالى ثراه في ذلك: أنه تعالى أقسم له ﷺ بوقتين فيهما صلاته عليه الصلاة والسلام التي جعلت قرة عينه وسبب مزيد قربه وأنسه، أما الضحى فلما رواه الدارقطني في المجتبى عن ابن عباس مرفوعاً: «كتب عليّ النحر ولم يكتب عليكم، وأمرت بصلاة الضحى ولم تؤمروا بها». وأما الليل فلقوله تعالى ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ [الإسراء: ٧٩] إرغاماً لأعدائه وتكذيباً لهم في زعم قلاه وجفائه فكأنه قيل وحق قربك لدينا وزلفاك عندنا إنّا اصطفيناك وما هجرناك وقليناك فهو كقوله:

وثناياك إنها إغريض

وهو مما تستطيبه أهل الأذواق ويمكن أن يكون الإقسام بالليل على ما نقل عن قتادة من باب وثناياك أيضاً وكذا الإقسام بهما على بعض الأوجه المارة كما لا يخفى. وعلى كون المراد بالضحى الوقت المعروف من النهار وبالليل جميعه قيل إن التفرقة للإشارة إلى أن ساعة من النهار توازي جميع الليل كما أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام يوازي جميع الأنبياء عليهم السلام وللإشارة لكون النهار وقت السرور والليل وقت الوحشة والغم إلى أن هموم الدنيا وغمومها أدوم من سرورها. وقد روي أن الله تعالى لما خلق العرش أظلت عن يساره غمامة فنادت: ماذا أمطر؟ فأمرت أن تمطر الغموم والأحزان فأمطرت مائة سنة ثم انكشفت فأمرت مرة أخرى بذلك، وهكذا إلى إتمام ثلاثمائة سنة ثم أظلت عن يمين العرش غمامة بيضاء فنادت: ماذا أمطر؟ فأمرت أن تمطر السرور ساعة فلذا ترى الغموم والأحزان أدوم من المسار في الدنيا والله تعالى أعلم بصحة الخبر وقيل غير ذلك.

وقوله تعالى ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ**﴾ الخ جواب القسم وودع من التوديع وهو في الأصل من الدعة وهو أن تدعو للمسافر بأن يدفع الله تعالى عنه كآبة السفر وأن يبلغه الدعة وخفض العيش كما أن التسليم دعاء له بالسلامة، ثم صار متعارفاً في تشييع المسافر وتركه ثم استعمل في الترك مطلقاً وفسر به هنا أي ما تركك ربك. وفي البحر والكشاف: التوديع مبالغة في الودع أي الترك لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في تركك، قيل: وعليه يلزم أن يكون المنفي الترك المبالغ فيه دون أصل الترك مع أن الظاهر نفي ذلك فلا بد من أن يقال إنه إنما نفى ذلك لأنه الواقع في كلام المشركين الذي نزلت له الآية، أو أن المبالغة تعود على النفي فيكون المراد المبالغة في النفي لا نفي المبالغة، وقد ذكروا نظير هذين الوجهين في قوله تعالى ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦] فتدبر. وقيل: إن المعنى ما قطعك قطع المودع على أن التوديع مستعارة تبعية للترك وفيه من اللطف والتعظيم ما لا يخفى فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعز مفارقته كما قال المتنبي:

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا ... فلم أدر أي الظاعنين أشيّع

وحقيقة التوديع المتعارف غير متصورة ها هنا، وتعقب بأنه على هذا لا يكون ردّاً لما قاله المشركون لأنهم لم يقولوا ودعه ربه على هذا المعنى كيف وهم بمعزل عن اعتقاد كونه عليه الصلاة والسلام بالمحل الذي هو ﷺ فيه من ربه سبحانه؟ وقيل في الجواب: إنه يجوز أن يدل ودعه ربه على ذلك إلاّ أنهم قاتلهم

الله تعالى قالوه على سبيل التهكم والسخرية، وحين رد عليهم قصد ما يشعر به اللفظ على التحقيق. وقيل: إن الترك مطلق في كلامهم والظاهر من حالهم أنهم لم يريدوا الماهية من حيث هي ولا من حيث تحققها في ضمن ما لا يخل بشريف مقامه عليه الصلاة والسلام بل الماهية من حيث تحققها في ضمن ما يخل بذلك، ولما كان المقصود إيناسه ﷺ وإزالة وحشته عليه الصلاة والسلام جيء بما يتضمن نفي ما زعموه على أبلغ وجه كأنه قيل: إن هذا النوع الغير المخل بمقامك من الترك لم يكن فضلاً عما زعموه من الترك المخل بعزيز مقامك وعندي أن الظاهر أن ذلك القول بأي معنى كان صادر على سبيل التهكم إذا كان المراد بالرب هو الله عز وجل وكان القائل من المشركين كما لا يخفى على المتأمل. وقرأ عروة بن الزبير وابنه هشام وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة «ما ودعك» بالتخفيف وهي على ما قال ابن جني قراءة النبيّ ﷺ وخرجت على أن ودع مخفف ودع ومعناه معناه. قال في القاموس: ودعه كوضعه وودع بمعنى، وقيل: ليس بمخففة بل هو فعل برأسه بمعنى ترك وأنه يعكر على قول النحاة أماتت العرب ماضي يدع ويذر ومصدرهما واسم فاعلهما واسم مفعولهما واستغنوا بما ليترك من ذلك. وفي المغرب أن النحاة زعموا أن العرب أماتت ذلك والنبي ﷺ أفصحهم وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات» وقرأ ﴿ما ودعك﴾ وقال أبو الأسود:

ليت شعري عن خليلي ما الذي ... غاله في الحب حتى ودعه

ومثله قول آخر:

وثم ودعنا آل عمرو وعامر ... فرائس أطراف المثقفة السمر

وهو دليل أيضاً على استعمال ودع وهو بمعنى ترك المتعلق بمفعولين فلا تغفل. وفي الحديث: «اتركوا التُرك ما تركوكم ودعوا الحبشة ما ودعوكم» وفي المستوفى أن كل ذلك قد ورد في كلام العرب ولا عبرة بكلام النحاة. وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل. نعم وروده نادر وقال الطيبي: بعد أن ذكر وروده نظماً ونثراً إنما حسن هذه القراءة الموافقة بين الكلمتين يعني هذه وما بعدها كما في حديث الترك والحبشة لأن رد العجز على الصدر وصنعة الترصيع قد جبرا منه. وقيل: إن القائلين إنما قالوا «ودعه ربه» بالتخفيف فنزلت فيكون المحسن له قصد المشاكلة لما قالوه وهم تكلموا بغير المعروف طيرة منهم كان غير المعروف من اللفظ مما يتشاءم به من الفأل الرديء أو أنهم لما قصدوا السخرية حسن استعمال اللفظ وقد قالوا يحسن استعمال الألفاظ الغريبة ونحوها في الهجاء فلا يبعد أن يكون في السخرية كذلك. والحق أنه بعد ثبوت وروده لا يحتاج إلى تكليف محسن له، والظاهر أن المراد بالرب هو الله عز وجل وفي التعبير عنه بعنوان الربوبية وإضافته إلى ضميره ﷺ من اللطف ما لا يخفى فكأنه قيل ما تركك المتكفل بمصلحتك والمبلغ لك على سبيل التدريج كما لك اللائق بك ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي وما أبغضك، وحذف المفعول لئلا يواجه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى وإن كانت في كلام منفي لطفاً به ﷺ وشفقة عليه عليه الصلاة والسلام أو لنفي صدوره عنه عز وجل بالنسبة إليه ﷺ ولأحد من أصحابه ومن أحبه ﷺ إلى يوم القيامة، أو للاستغناء عنه بذكره من قبل مع أن فيه مراعاة للفواصل. واللغة المشهورة في مضارع قلى يقلي كيرمي وطيىء تقول: يقل بفتح العين كيرضى وتفسير القلى بالبغض شائع. وفي القاموس من الواوي قلا زيداً قلاً وقلاه أبغضه ومن اليائي قلاه كرماه ورضيه قلى وقلاه مقيلة أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه أو قلاه في الهجر وقليه في البغض. وفي مفردات

الراغب القلى شدة البغض يقال: قلاه يقلوه ويقليه فمن جعله من الواوي فهو من القلو أي الرمي من قولهم: قلت الناقة براكبها قلواً وقلوت بالقلة فكان المقلو هو الذي يقذفه القلب من بغضه فلا يقبله، ومن جعله من اليائي فمن قليت البسر والسويق على المقلاة انتهى وبينهما مخالفة لا تخفى. وعلى اعتبار شدة البغض فالظاهر أن ذلك في الآية ليس إلاّ لأنه الواقع في كلامهم قال المفسرون: أبطأ جبريل عليه السلام على النبيّ ﷺ، فقال المشركون: قد قلاه ربه وودعه، فأنزل الله تعالى ذلك. وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال لما نزلت ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ [المسد: ١] الخ قيل لامرأة أبي لهب أم جميل إن محمداً ﷺ قد هجاك فأتته عليه الصلاة والسلام وهو ﷺ جالس في الملأ فقالت: يا محمد علام تهجوني؟ قال: «إني والله ما هجوتك ما هجاك إلاّ الله تعالى» فقالت: هل رأيتني أحمل حطباً أو في جيدي حبلاً من مسد؟ ثم انطلقت فمكث رسول الله ﷺ لا ينزل عليه فأتته فقالت: ما أرى صاحبك إلاّ قد ودعك وقلاك، فأنزل الله تعالى ذلك.

وأخرج الترمذي وصححه وابن أبي حاتم واللفظ له عن جندب البجلي قال: رمي ﷺ بحجر في أصبعه فقال:

ما أنت إلا أصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيت

فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم فقالت له امرأة: ما أرى شيطانك إلاّ قد تركك. وفي رواية للترمذي أيضاً والإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وجماعة بلفظ: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فأنزل الله تعالى ﴿**والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى**﴾ وليس فيه حديث المرأة ولا الحجر والرجز وذلك لا يطعن في صحته. وقال جمع من المفسرين: إن اليهود سألوه عليه الصلاة والسلام عن أصحاب الكهف، وعن الروح، وعن قصة ذي القرنين فقال عليه الصلاة والسلام: «سأخبركم غداً» ولم يستثن فاحتبس عنه الوحي فقال المشركون ما قالوا فنزلت. وقيل إن عثمان أهدى إليه ﷺ عنقود عنب وقيل عذق تمر فجاء سائل فأعطاه ثم اشتراه عثمان بدرهم فقدمه إليه عليه الصلاة والسلام ثانياً، ثم عاد السائل فأعطيه وهكذا ثلاث مرات فقال عليه الصلاة والسلام ملاطفاً لا غضبان: «أسائل أنت يا فلان أم تاجر؟» فتأخر الوحي أياماً فاستوحش فنزلت، ولعلهم أيضاً قالوا ما قالوا. وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده والطبراني وابن مردويه من حديث خولة وكانت تخدم رسول الله ﷺ إن جرواً دخل تحت سرير رسول الله ﷺ فمات ولم نشعر به، فمكث رسول الله ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال: «يا خولة ما حدث في بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام جبريل لا يأتيني» فقلت: يا نبي الله ما أتى علينا يوم خير منا اليوم، فأخذ برده فلبسه وخرج فقلت في نفسي لو هيأت البيت وكنسته فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا بشيء ثقيل فلم أزل به حتى بدا لي الجرو ميتاً فأخذته بيدي فألقيته خلف الدار، فجاء النبيّ ﷺ ترعد لحيته وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة فقال: يا خولة دثريني، فأنزل الله تعالى ﴿**والضحى والليل** ـ إلى قوله سبحانه ـ **فترضى**﴾ وهذه الرواية تدل على أن الانقطاع كان أربعة أيام. وعن ابن جريج أنه كان اثني عشر يوماً، وعن الكلبي خمسة عشر يوماً وقيل بضعة عشر يوماً، وعن ابن عباس خمسة وعشرين يوماً، وعن السدّي ومقاتل أربعين يوماً وأنت تعلم أن مثل ذلك مما يتفاوت العلم بمبدئه ولا يكاد يعلم على التحقيق إلاّ منه عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم. وفي بعض الروايات ما يدل على أن قائل ذلك هو النبيّ عليه الصلاة والسلام. فعن الحسن أنه قال: أبطأ الوحي على رسول الله ﷺ فقال لخديجة: «إن ربي ودعني وقلاني» يشكو إليها، فقالت: كلا والذي بعثك بالحق ما ابتدأك الله تعالى بهذه الكرامة إلاّ وهو سبحانه يريد أن يتمها لك فنزلت. واستشكل هذا بأنه لا يليق بالرسول

ﷺ أن يظن أن الله تعالى شأنه ودعه وقلاه وهل إلاّ نحو من العزل وعزل النبيّ عن النبوة غير جائز في حكمته عز وجل، والنبيّ عليه الصلاة والسلام أعلم بذلك ويعلم ﷺ أيضاً أن إبطاء الوحي وعكسه لا يخلو كل منهما عن مصلحة وحكمة. وأجيب بأن مراده عليه الصلاة والسلام إن صح أن يجربها ليعرف قدر علمها أو ليعرف الناس ذلك فقال ما قال ﷺ بضرب من التأويل كأن يكون قد قصد إن ربي ودعني وقلاني بزعم المشركين، أو أن معاملته سبحانه إياي بإبطاء الوحي تشبه صورة معاملة المودع والقالي. وأنت تعلم أن هذه الرواية شاذة لا يعول عليها ولا يلتفت إليها فلا ينبغي إتعاب الذهن بتأويلها. ونحوها ما دل على أن قائل ذاك خديجة رضي الله تعالى عنها. أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عروة قال: أبطأ جبريل عليه السلام عن النبيّ ﷺ فجزع جزعاً شديداً فقالت خديجة: أرى ربك قد قلاك مما أرى من جزعك فنزلت ﴿**والضحى والليل**﴾ إلى آخرها، والقول بأنها رضي الله تعالى عنها أرادت أن هذا الجزع لا ينبغي أن يكون إلاّ من قلى ربك إياك وحاشى أن يقلاك فما هذا الجزع بعيد غاية البعد والمعول ما عليه الجمهور وصحت به الأخبار أن القائل هم المشركون وأنه عليه الصلاة والسلام إنما أحزنه بمقتضى الطبيعة البشرية تعبيرهم وعدم رؤية جبريل عليه السلام مع مزيد حبه إياه. وفي بعض الآثار أنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «ما جئتني حتى اشتقت إليك» فقال جبريل عليه السلام: كنت أنا إليك أشوق ولكنني عبد مأمور وتلا ﴿وما نتنزل إلاّ بأمر ربك﴾ [مريم: ٦٤] وفي رواية أنه عاتبه عليهما الصلاة والسلام فقال أما علمت أنّا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة. وراوي هذا يروي أن السبب في إبطاء الوحي وجود جرو في بيته عليه الصلاة والسلام والروايات في ذلك مختلفة، وجوز بعضهم أن يكون الإبطاء لتجمع الأسباب ثم إنه قد زعم بعض بناء على بعض الروايات السابقة جواز أن يكون المراد بربك في ﴿**ما وعدك ربك**﴾ دون ما بعد صاحبك والمراد به جبريل عليه السلام وهو كما ترى.

وحيث تضمن ما سبق من نفي التوديع والقلى أنه عز وجل لا يزال يواصله عليه الصلاة والسلام بالوحي والكرامة في الدنيا بشر ﷺ بأن ما سيؤتاه في الآخرة أجل وأعظم من ذلك فقيل: ﴿**وَلَلۡآخِرَةُ خَيۡرٌ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ**﴾ لما أنها باقية صافية عن الشوائب على الإطلاق وهذه فانية مشوبة بالمضار وما أوتي عليه الصلاة والسلام من شرف النبوة وإن كان مما لا يعادله شرف ولا يدانيه فضل لكنه لا يخلو في الدنيا عن بعض العوارض القادحة في تمشية الأحكام مع أنه عندما أعدّ له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من السبق والتقدم على كافة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام يوم الجمع يوم يقوم الناس لرب العالمين، وكون أمته ﷺ شهداء على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته ﷺ وغير ذلك من الكرامات السنية التي لا تحيط بها العبارات وتقصر دونها الإشارات بمنزلة بعض المبادىء بالنسبة إلى المطالب كذا في الإرشاد والاختصاص الذي تقتضيه اللام قيل إضافي على معنى اختصاصه عليه الصلاة والسلام بخيرية الآخرة دون من آذاه وشمت بتأخير الوحي عنه ﷺ، ولا مانع من عمومه لجميع الفائزين كيف وقد علم بالضرورة أن الخير المعدّ له عليه الصلاة والسلام خير من المعدّ لغيره على الإطلاق، ويكفي في ذلك اختصاص المقام المحمود به ﷺ على أن اختصاص اللام ليس قصرياً كما قرر في موضعه، وحمل الآخرة على الدار الآخرة المقابلة للدنيا والأولى على الدار الأولى وهي الدنيا هو الظاهر المروي عن أبي إسحاق وغيره. وقال ابن عطية وجماعة: يحتمل أن يراد بهما نهاية أمره ﷺ وبدايته فاللام فيهما للعهد أو عوض عن المضاف إليه أي لنهاية أمرك خير من بدايته لا تزال تتزايد قوة وتتصاعد رفعة. وفي بعض الأخبار المرفوعة ما هو أظهر في الأول أخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «عرض عليّ

ما هو مفتوح لأمتي بعدي فسرني» فأنزل الله تعالى ﴿**وللآخرة خير لك من الأولى**﴾ ثم إن ربط الآية بما قبلها على الوجه الذي سمعت هو ما اختاره غير واحد من الأجلّة وجوز أن يقال فيه إنه لما نزل ﴿**ما ودعك ربك وما قلى**﴾ حصل له عليه الصلاة والسلام به تشريف عظيم فكأنه ﷺ استعظم ذلك فقيل له ﴿**وللآخرة خير لك من الأولى**﴾ على معنى أن هذا التشريف وإن كان عظيماً إلاّ أن ما لك عند الله تعالى في الآخرة خير وأعظم. وجوز أيضاً أن يكون المعنى أن انقطاع الوحي لا يجوز أن يكون لما يتوهمون لأنه عزل عن النبوة وهو مستحيل في الحكمة بل أقصى ما في الباب أن يكون ذلك لأنه حصل الاستغناء عن الرسالة وذلك أمارة الموت فكأنه تعالى قال: انقطاع الوحي متى حصل دل على الموت لكن الموت خير لك فإن ما لك عند الله تعالى في الآخرة أفضل مما لك في الدنيا، وهذا كما ترى دون ما قبله بكثير والمتبادر مما قرروه أن الجملة مستأنفة واللام فيها ابتدائية. وقد صرح جمع بأنها كذلك في قوله تعالى ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾ وقالوا: فائدتها تأكيد مضمون لجملة وبعدها مبتدأ محذوف أي ولأنت سوف يعطيك الخ وأورد عليه أن التأكيد يقتضي الاعتناء والحذف بنافيه ولذا قال ابن الحاجب: إن المبتدأ المؤكد باللام لا يحذف وإن اللام مع المبتدأ كقد مع الفعل وإن مع الاسم فكما لا يحذف الفعل والاسم ويبقيان بعد حذفهما كذلك لا يحذف المبتدأ وتبقى اللام وإنه يلزم التقدير والأصل عدمه وأن اللام لتخلص المضارع الذي في حيزها للحال كتأكيد مضمون الجملة وهو هنا مقرون بحرف التنفيس والتأخير فيلزم التنافي. وردّ بأن المؤكد الجملة لا المبتدأ وحده حتى ينافي تأكيده حذفه وكلام ابن الحاجب ليس حجة على الفارسي وأمثاله وأن يحذف معها الاسم كثيراً كما ذكره النحاة وكذا قد يحذف بعدها الفعل كقوله:

أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد

مع أنه لو سلم فقد يفرق كما قال الطيبي بين أن وقد وهذه اللام بأنهما يؤثران في المدخول عليه مع التأكيد بخلاف هذه اللام فإن مقتضاها أن تؤكد مضمون الجملة لا غير وهو باق، وإن حذف المبتدأ فالقياس قياس مع الفارق والنحويون يقدرون كثيراً في الكلام كما قدروا المبتدأ في نحو قمت وأصك عينه وهو لأجل الصناعة دون المعنى كما فيما نحن فيه واللام المؤكدة لا نسلم أنها لتخليص المضارع للحال أيضاً بل هي لمطلق التأكيد فقط ويفهم معها الحال بالقرينة لأنه أنسب بالتأكيد. وعلى تسليم أنها لتخليصه للحال أيضاً يجوز أن يقال إنها تجردت للتأكيد هنا بقرينة ذكر سوف بعدها، والمراد تأكيد المؤخر أعني الإعطاء لا تأكيد التأخير فالمعنى أن الإعطاء كائن لا محالة وإن تأخر لحكمة وعلى تسليم أنها للأمرين ولا تجرد يجوز أن يقال نزل المستقبل أعني الإعطاء الذي يعقبه الرضا لتحقق وقوعه منزلة الواقع الحالي نظير ما قيل في قوله تعالى ﴿إن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة﴾ [النحل: ١٢٤] وقيل يحسن هذا جداً فيما نحن فيه على القول بأن الإعطاء قد شرع فيه عند نزول الآية بناءً على أحد أوجهها الآتية بعد أن شاء الله تعالى، وذهب بعضهم بأن اللام الأولى للقسم وكذا هذه اللام وبقسميتها جزم غير واحد فالواو عليه للعطف فكلا الوعدين داخل في المقسم عليه، ويكون الله تعالى قد أقسم على أربعة أشياء اثنان منفيان واثنان مثبتان وهو حسن في نظري، واعترض بأن لام القسم لا تدخل على المضارع إلاّ مع النون المؤكدة فلو كانت للقسم لقيل «لسوف يعطيك ربك» ولا يخفى أن هذا أحد مذهبين للنحاة والآخر أنه يستثنى ما قرن بحرف تنفيس كما هنا، ففي المغني أنه تجب اللام وتمتنع النون فيه كقوله:

فوربي لسوف يجزى الذي | أسلف المرء سيئاً أو جميلا

وكذا مع فصل معمول بين اللام والفعل نحو ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ [آل عمران: ١٥٨] ومع كون الفعل للحال نحو «لا قسم» وقد يمتنعان وذلك مع الفعل المنفي نحو ﴿تالله تفتأ﴾ [يوسف: ٨٥] وقد يجبان وذلك فيما بقي نحو ﴿تالله لأكيدن أصنامكم﴾ [الأنبياء: ٥٧] وعليه لا يتجه الاعتراض مع أن الممنوع بدون النون في جواب القسم لا في المعطوف عليه كما هنا فإنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع، وإنما ذكرت اللام تأكيداً للقسم وتذكيراً به، وبالجملة هذا الوجه أقل دغدغة من الوجه السابق ولا يحتاج فيه إلى توجيه جميع اللام مع سوف إذ لم يقل أحد من علماء العربية بأن اللام القسمية مخلصة المضارع للحال كما لا يخفى على من تتبع كتبهم. وظاهر كلام الفاضل الكلنبوي أن كلاً من اللامين موضوع للدلالة على الحال ووجه الجمع على تقدير كونها في الآية قسمية بأنها محمولة على معناها الحقيقي، وسوف محمولة على تأكيد الحكم ولذا قامت مقام إحدى النونين عند أبي علي الفارسي وقد أطال رحمه الله تعالى الكلام فيما يتعلق بهذا المقام وأتى على غزارة فضله بما يستبعد صدوره من مثله. وقال عصام الدين: الأظهر أن جملة ﴿**ما ودعك**﴾ حالية أي ما ودعك ربك وما قلاك، والحال أن الآخرة خير لك من الأولى وأنت تختارها عليها، ومن حاله كذلك لا يتركه ربه ففيه إرشاد للمؤمنين إلى ما هو ملاك قرب العبد إلى الرب عز وجل وتوبيخ للمشركين بما هم فيه من التزام أمر الدنيا والإعراض عن الآخرة، وحينئذ معنى قوله سبحانه ﴿**ولسوف يعطيك**﴾ أنه سوف يعطيك الآخرة ولا يخفى حينئذ كمال اشتباك الجمل انتهى. وفيه أن دخول اللام عليها مع دخوله على الجملة بعدها وسبقهما بالقسم يبعد الحالية جداً، وأيضاً المعنى ذكره على تقديرها غير ظاهر من الآية وكان الظاهر عليه عندك بدل لك كما لا يخفى عليك واختلف في قوله تعالى ﴿**ولسوف**﴾ الخ فقيل: هو عدة كريمة شاملة لما أعطاه الله عز وجل في الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين وظهور الأمر وإعلاء الدين بالفتوح الواقعة في عصره ﷺ وفي أيام خلفائه عليه الصلاة والسلام وغيرهم من الملوك الإسلامية وفشو الدعوة والإسلام في مشارق الأرض ومغاربها. ولما ادّخر جل وعلا له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من الكرامات التي لا يعلمها إلا هو جل جلاله وعم نواله وقيل عدة بما أعطاه سبحانه وتعالى في الدنيا من فتح مكة وغيره والجمهور على أنه عدة أخروية فأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال هي الشفاعة، وروي نحوه عن بعض أهل البيت رضي الله تعالى عنهم. أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال: قلت لأبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين على جدهم وعليهم الصلاة والسلام: أرأيت هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق أحق هي؟ قال: أي والله حدثني محمد بن الحنفية عن عليّ كرم الله تعالى وجهه أن رسول الله ﷺ قال: «أشفع لأمتي حتى ينادي ربي أرضيت يا محمد؟ فأقول: نعم يا رب رضيت» ثم أقبل عليّ فقال إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرجى آية في كتاب الله تعالى ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ [الزمر: ٣٥] قلت إنا لنقول ذلك قال فكلنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله تعالى ﴿**ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾ وقال: هي الشفاعة.. وقيل: هي أعم من الشفاعة وغيرها ويرشد إليه ما أخرجه العسكري في المواعظ وابن مردويه وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله ﷺ على فاطمة وهي تطحن بالرحا وعليها كساء من جلد الإبل فلما نظر إليها قال: «يا فاطمة تعجلي مرارة الدنيا بنعيم الآخرة غداً» فأنزل الله تعالى ﴿**ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾. وقال أبو حيان: الأولى العموم لما في الدنيا والآخرة على اختلاف

أنواعه والخبر المذكور لو سلم صحته لا يأبى ذلك. نعم عطايا الآخرة أعظم من عطايا الدنيا بكثير فقد روى الحاكم وصححه وجماعة عن ابن عباس أنه قال أعطاه الله تعالى في الجنة ألف قصر منْ لؤلؤ ترابه المسك في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. وأخرج ابن جرير عنه أنه قال في الآية من رضا محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار. وأخرج البيهقي ففي شعب الإيمان عنه أنه قال: رضاه ﷺ أن يدخل أمته كلهم الجنة. وفي رواية الخطيب في تلخيص المتشابه من وجه آخر عنه لا يرضى محمد ﷺ وأحد من أمته في النار وهذا ما تقتضيه شفقته العظيمة عليه الصلاة والسلام على أمته فقد كان ﷺ حريصاً عليهم رؤوفاً بهم مهتماً بأمرهم. وقد أخرج مسلم كما في الدر المنثور عن ابن عمر أنه ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام ﴿فمن تبعني فإنه مني﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقوله تعالى في عيسى ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ [المائدة: ١١٨] الآية فرفع عليه الصلاة والسلام يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي» وبكى فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد ﷺ فقل له إنا سنرضيك في أمتك يخفى ولا نسوؤك. وفي إعادة اسم الرب مع إضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى أيضاً من اللطف به ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ﴾ تعديل لما أفاض ﷺ من أول أمره إلى وقت النزول من فنون النعماء العظام ليستشهد بالخاص الموجود على المترقب الموعود فيزداد قلبه الشريف وصدره الرحيب طمأنينة وسروراً وانشراحاً وحبوراً ولذا فصلت الجملة. والهمزة لإنكار النفي وتقرير النفي على أبلغ وجه كأنه قيل قد وجدك الخ. ووجدته على ما قال الرضي بمعنى أصبته على صفة ويراد بالوجود فيه العلم مجازاً بعلاقة اللزوم. وفي مفردات الراغب لوجود اضرب وجود بالحواس الظاهرة ووجود بالقوى الباطنة ووجود بالعقل وما نسب إلى الله تعالى من الوجود فبمعنى العلم المجرد إذ كان الله تعالى منزهاً عن الوصف بالجوارح والآلات، وقد فسره بعضهم هنا بالعلم وجعل مفعوله الأول الضمير ومفعوله الثاني ﴿يتيماً﴾ وبعضهم بالمصادفة وجعله متعدياً لواحد فـ ﴿يتيماً﴾ حالاً وأنت تعلم أن المصادفة لا تصح في حقه تعالى لأنها ملاقاة ما لم يكن في علمه سبحانه وتقديره جل شأنه، فلا بد من التجوز بها عن تعلق علمه عز وجل بذلك. واليتم انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه، والإيواء ضم الشيء إلى آخر يقال: آوى إليه فلاناً أي ضمّه إلى نفسه أي ألم يعلمك طفلاً لا أباً لك فضمك إلى من قام بأمرك. روي أن عبد المطلب بعث ابنه عبد الله أبا رسول الله ﷺ يمتار تمراً من يثرب فتوفي ورسول الله ﷺ جنين قد أتت عليه ستة أشهر فلما وضعته كان في حجر جده مع أمه فماتت وهو عليه الصلاة والسلام ابن ست سنين، ولما بلغ عليه الصلاة والسلام ثماني سنين مات جده فكفله عمه الشفيق الشقيق أبو طالب بوصية من أبيه عبد المطلب وأحسن تربيته ﷺ. وفي الكشاف ماتت أمه عليه الصلاة السلام وهو ابن ثماني سنين فكفله عمه وكان شديد الاعتناء بأمره إلى أن بعثه الله تعالى وكان يرى منه ﷺ في صغره ما لم ير من صغير روي أنه قال يوماً لأخيه العباس: ألا أخبرك عن محمد ﷺ بما رأيت منه. فقال: بلى. قال: إني ضممته إليّ فكنت لا أفارقه ساعة من ليل ولا نهار ولم ائتمن عليه أحداً حتى أني كنت أنومه في فراشي، فأمرته ليلة أن يخلع ثيابه وينام معي فرأيت الكراهية في وجهه وكره أن يخالفني فقال: يا عماه اصرف وجهك عني حتى أخلع ثيابي إني لا أحب أن تنظر إلى جسدي، فتعجبت من قوله وصرفت بصري حتى دخل الفراش فلما دخلت معه الفراش إذا بيني وبينه ثوب والله ما أدخلته في فراشي فإذا هو في غاية اللين وطيب الراحة كأنه غمس في المسك، فجهدت لأنظر إلى جسده فما كنت أرى شيئاً وكثيراً ما

كنت أفقده من فراشي فإذا قمت لأطلبه ناداني ها أنا يا عم فارجع، وكنت كثيراً ما أسمع منه كلاماً يعجبني وذلك عندما مضى بعض الليل وكنا لا نسمي على الطعام والشراب ولا نحمد وكان يقول في أول الطعام: بسم الله الأحد، فإذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله، فكنت أعجب منه ولم أر منه كذبة ولا ضحكاً ولا جاهلية ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون وهذا لعمري غيض من فيض:

في المهد يعرب عن سعادة جده ... أثر النجابة ساطع البرهان

وقيل: المعنى ألم يجدك يتيماً أبتك المراضع فآواك من مرضعة تحنو عليك بأن رزقها بصحبتك الخير والبركة حتى أحبتك وتكفلتك، والأول هو الظاهر، وقيل غير ذلك مما ستعلمه بعد إن شاء الله تعالى. ومن بدع التفاسير على ما قال الزمخشري أن يتيماً من قولهم درة يتيمة والمعنى ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فآواك والأولى عليه أن يقال ألم يجدك واحداً عديم النظير في الخليقة لم يحو مثلك صدف الإمكان فآواك إليه وجعلك في حق اصطفائه. وقرأ أبو الأشعث «فأوى» ثلاثياً فجوز أن يكون من أواه بمعنى آواه وأن يكون من أوى له أي رحمه ومصدره أياواية وماويّة وماوية وتحقيقه على ما قال الراغب أي رجع إليه بقلبه ومنه قوله:

أو أني ولا كفران لله أية

وقوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ عطف على ما يقتضيه الإنكار السابق كما أشير إليه أو على المضارع المنفي بلم داخل في حكمه كأنه قيل: أما وجدك يتيماً فآوى ووجدك غافلاً عن الشرائع التي لا تهتدي إليها العقول كما في قوله تعالى ﴿ما كنت تدري ما الكتاب﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله سبحانه ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ [يوسف: ٣] فهداك إلى مناهجها في تضاعيف ما أوحي إليك من الكتاب المبين وعلمك ما لم تكن تعلم، وعلى هذا كما قال الواحدي أكثر المفسرين وهو اختيار الزجاج. وروى سعيد بن المسيب أنه ﷺ سافر مع عمه أبي طالب إلى الشام فبينما هو راكب ناقة ذات ليلة ظلماء وهو نائم جاءه إبليس فأخذ بزمام الناقة فعدل به عن الطريق فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام فنفخ إبليس نفخة وقع منها بالحبشة ورده إلى القافلة، فما في الآية إشارة إلى ذلك على ما قيل. وقيل إشارة إلى ما روي عن ابن عباس من أنه ﷺ ضل وهو صغير عن جده في شعاب مكة فرآه أبو جهل منصرفاً من أغنامه فردّه لجده وهو متعلق بأستار الكعبة يتضرع إلى الله تعالى في أن يرد إليه محمداً، وذكر له أنه لما رآه أناخ الناقة وأركبه من خلفه فأبت أن تقوم فأركبه أمامه فقامت فكانت الناقة تقول: يا أحمق هو الإمام فكيف يقوم خلف المقتدي. وفي إرجاعه عليه الصلاة والسلام إلى أهله على يد أبي جهل وقد علم سبحانه منه أنه فرعونه يشبه إرجاع موسى عليه السلام إلى أمه على يد فرعون. وقيل: ضل عليه الصلاة والسلام مرة أخرى وطلبوه فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً وتضرع إلى الله تعالى فسمعوا منادياً ينادي من السماء: يا معشر الناس لا تضجوا فإن لمحمد رباً لا يخذله ولا يضيعه وإن محمداً بوادي تهامة عند شجرة السمر، فسار عبد المطلب وورقة بن نوفل فإذا النبي ﷺ قائم تحت شجرة يلعب بالأغصان والأوراق. وقيل: أضلته مرضعته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب فضالاً على هذه الروايات من ضل في طريقه إذا سلك طريقاً غير موصولة لمقصده وضعف حمل الآية على ذلك بأن مثله بالنسبة إلى ما تقدم لا يعد من نعم الله تعالى على مثل نبيه ﷺ التي يمتن سبحانه بها عليه. وقيل: الضال الشجرة المنفردة في البيداء ليس حولها شجر والمراد

أما وجدك وحدك ليس معك أحد فهدى الناس إليك ولم يتركك منفرداً. وقال الجنيد قدس سره: أي وجدك متحيراً في بيان الكتاب المنزل عليك فهداك لبيانه وفيه قرب ما من الأول. وقال بعضهم: وجدك غافلاً عن قدر نفسك فأطلعك على عظيم محلك. وقيل: وجدك ضالاً عن معنى محض المودة فسقاك كأساً من شراب القربة والمودة فهداك به إلى معرفته عز وجل. وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: كنت ضالاً عن محبتي لك في الأزل فمننت عليك بمعرفتي وهو قريب من سابقه. وقال الحريري: أي وجدك متردداً في غوامض معاني المحبة فهداك لها وهو أيضاً كذلك وكل ذلك منزع صوفي. ورأى أبو حيان في منامه أن الكلام على حذف مضاف والمعنى ووجد رهطك ضالاً فهدى بك وهو كما ترى في يقظتك.

وقوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فأغْنَى﴾ على نمط سابق والعائل المفتقر من عال يعيل عيلاً وعيلة وعيولاً ومعيلاً افتقر أي وجدك عديم المقتنيات فأغناك بما حصل لك من ربح التجارة وذلك في سفره ﷺ مع ميسرة إلى الشام وبما وهبته لك خديجة رضي الله تعالى عنها من المال وكانت ذا مال كثير فلما تزوجها عليه الصلاة والسلام وهبته جميعه له ﷺ لئلا يقول قائل ما يثقل على سمعه الشريف عليه الصلاة والسلام وبمال أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وكان أيضاً ذا مال فأتى به كله رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام: «ما تركت لعيالك»؟ فقال: تركت الله تعالى ورسوله ﷺ. وقيل بما أفاء عليك من الغنائم وفيه أن السورة مكية والغنائم إنما كانت بعد الهجرة وقيل المراد قنعك وأغنى قلبك فإن غنى القلب هو الغنى، وقد قيل من عدم القناعة لم يفده المال غنى، وقيل أغناك به عز وجل عما سواه وهذا الغنى بالافتقار إليه تعالى. وفي الحديث «اللهم أغنني بالافتقار إليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك» وبهذا ألمّ بعض الشعراء فقال:

ويعجبني فقري إليك ولم يكن ... ليعجبني لولا محبتك الفقر

وشاع حديث «الفقر فخري» وحمل الفقر فيه على هذا المعنى وهو على ما قال ابن حجر باطل موضوع وأشد منه وضعاً وبطلاناً ما يذكره بعض المتصوفة إذا تمّ الفقر فهو الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً وقد خاضوا في بيان المراد به بما لا يدفع بشاعته بل لا يقتضي استقامته. وقيل ﴿عائلا﴾ أي ذا عيال من عال يعول عولاً وعيالة كثير عياله، ويحتمل المعنيين قول جرير:

الله نزل في الكتاب فريضة ... لابن السبيل وللفقير العائل

ولعل الثاني فيه أظهر ورجح الأول في الآية بقراءة ابن مسعود «عديماً» وأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن ذا عيال في أول أمره ﷺ. وقرأ اليماني «عيلاً» كسيداً بشدا الياء المكسورة هذا وذكر عصام الدين في هذه الآيات أنه يحتمل أن يراد باليتيم فاقد المعلم فإن الآباء ثلاثة من علمك ومن زوجك ومن ولدك، ويناسبه حمل الضلال على الضلال عن العلم، وحمل العيال أي على تفسير ﴿عائلا﴾ بذا عيال على عيال الأمة الطالبة منه معرفة مصالح الدين مع احتياجه إلى المعرفة فأغناه الله تعالى بالوحي إليه عليه الصلاة والسلام ولا يخفى ما فيه. وحذف المفعول في الأفعال الثلاثة لظهور المراد مع رعاية الفواصل. وقيل: ليدل على سعة الكرم والمراد آواك وآوى لك وبك وهداك ولك وبك وأغناك ولك وبك وظاهر الفاء مع تلك الأفعال تأبى ذلك. وأطال الإمام الكلام في الآيات وأتى فيها بغث وسمين ولولا خشية الملل لذكرنا ما فيه.

﴿فأمَّا اليَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾ فلا تستذله كما قال ابن سلام وقريب منه قول مجاهد لا تحتقر. وقال سفيان: لا تظلمه بتضييع ماله وفي معناه ما قيل لا تغلبه على ماله، ولعل التقييد لمراعاة الغالب والأولى حمل القهر

على الغلبة والتذليل معابان يراد التسلط بما يؤذي أو باستعمال المشترك في معنييه على القول بجوازه وفي مفردات الراغب القهر الغلبة والتذليل معاً ويستعمل في كل واحد منهما، وقرأ ابن مسعود والشعبي وإبراهيم التيمي «فلا تكهر» بالكاف بدل القاف ومعناه على ما في البحر فلا تقهر. وفي تهذيب الأزهري الكهر القهر والكهر عبوس الوجه والكهر الشتم واختار بعضهم هنا أوسطها فالمعنى فلا تعبس في وجهه وهو نهي عن الشتم والقهر على ما سمعت من معناه من باب الأولى وأيًا ما كان ففي الآية دلالة على الاعتناء بشأن اليتيم. وعن ابن مسعود مرفوعاً «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده نور يوم القيامة» وعن عمر رضي الله تعالى عنه مرفوعاً أيضاً «إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي من أبكى هذا اليتيم الذي غيب أبوه في التراب؟ فيقول الملائكة: أنت أعلم. فيقول الله تعالى: يا ملائكتي إني أشهدكم أن عليّ لمن أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة» فكان عمر رضي الله تعالى عنه إذا رأى يتيماً مسح رأسه وأعطاه شيئاً ولم يصح في كيفية مسحه شيء والرواية عن ابن عباس في ذلك قد قيل فيها ما قيل. وروي عنه ﷺ أنه قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين إذا اتقى الله عز وجل» وأشار بالسبابة والوسطى إلى غير ذلك من الأخبار.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾ أي فلا تزجره ولكن تفضل عليه بشيء أورده بقول جميل وأريد به عند جمع السائل المستجدي الطالب لشيء من الدنيا، وتدل الآية على الاعتناء بشأنه أيضاً وعن إبراهيم بن أدهم نعم القوم السؤّال يحملون زادنا إلى الآخرة. وعن إبراهيم النخعي: السائل يريد الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول: أتبعثون إلى أهليكم بشيء وشاع حديث «للسائل حق وإن جاء على فرس» وقد قال فيه الإمام أحمد كما في تمييز الطيب من الخبيث لا أصل له وأخرجه أبو داود عن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما موقوفاً وسكت عنه، وقال العراقي سنده جيد وتبعه غيره، وقال ابن عبد البر إنه ليس بالقوي وعوّل كثير على ما قال الإمام أحمد وفي معناه احتمالان كل منهما يؤذن بالاهتمام بأمر السائل. وروي من طرق عن عائشة وغيرها: لو صدق السائل ما أفلح من رده. وهو أيضاً على ما قال ابن المديني لا أصل له، وقال ابن عبد البر جميع أسانيده ليست بالقوية. نعم أخرج الطبراني في الكبير عن أبي أمامة مرفوعاً ما يقرب منه وهو «لولا أن المساكين يكذبون ما أفلح من ردهم» ولم أقف على من تعقبه. ثم النهي على النهر على ما قالوا إذا لم يلح في السؤال فإن ألح ولم ينفع الرد اللين فلا بأس بالزجر. وقال أبو الدرداء والحسن وسفيان وغيرهم: المراد بالسائل هنا السائل عن العلم والدين لا سائل المال ولعل النهي عن زجره على القول الأول يعلم بالأولى ويشهد للأولوية أنه لا وعيد على ترك إعطاء المستجدي لمن يجد ما يستجديه بخلاف ترك جواب سائل العلم لمن يعلم ففي الحديث «من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار» وسيأتي إن شاء الله تعالى ما قيل من أن الظاهر الثاني من القولين.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فإن التحدث بها شكر لها كما قال عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة والفضيل بن عياض. وأخرج البخاري في الأدب وأبو داود والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي والضياء عن جابر بن عبد الله مرفوعاً: «من أعطي عطاء فوجد فليجز به فإن لم يجد فليثن به فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور» ولذا استحب بعض السلف التحدث بما عمله من الخير إذ لم يرد به الرياء والافتخار وعلم الاقتداء به بل بعض أهل البيت رضي الله تعالى

عنهم حمل الآية على ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقسم قال: لقيت الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما فقلت أخبرني عن قول الله تعالى ﴿**وأما بنعمة ربك فحدث**﴾ فقال: الرجل المؤمن يعمل عملاً صالحاً فيخبر به أهل بيته. وأخرج ابن أبي حاتم عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال فيها إذا أصبت خيراً فحدث إخوانك والظاهر أن المراد بالنعمة ما أفاضه الله تعالى على نبيه ﷺ من فنون النعم التي من جملتها ما تقدم. وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد تفسيرها بالنبوة ورووا عنه أيضاً تفسيرها بالقرآن ووافقه في الأول محمد بن إسحاق وفي الثاني الكلبي، وعليهما المراد بالتحديث التبليغ ولا يخفى أن كلا التفسيرين غير مناسب لما قبل وهذه الجمل الثلاث مرتبة على ما قبلها فقيل على اللف والنشر المشوش وحاصل المعنى أنك كنت يتيماً وضالاً وعائلاً فآواك وهداك وأغناك فمهما يكن من شيء فلا تنس نعمة الله تعالى عليك في هذه الثلاث واقتد بالله تعالى فتعطف على اليتيم وترحم على السائل فقد ذقت اليتم والفقر. وقوله تعالى ﴿**وأما بنعمة**﴾ الخ في مقابلة قوله سبحانه ﴿**وجدك ضالاً فهدى**﴾ لعمومه وشموله لهدايته عليه الصلاة والسلام من الضلال بتعليم الشرائع وغير ذلك من النعم، ولم يراع الترتيب لتقديم حقوق العباد على حقه عز وجل فإنه سبحانه وتعالى غني عن العالمين، وقيل لتقديم التخلية على التحلية أو للترقي أو لمراعاة الفواصل ونظر في كل ذلك. وقال الطيبي: الظاهر أن المراد بالسائل طالب العلم لا المستجدي وعليه لا مانع من كون التفصيل على الترتيب فيقال إنه تعالى ذكر أحواله ﷺ على وفق الترتيب الخارجي بأن يراد بهدايته عليه الصلاة والسلام ما يعم توفيقه للنظر الصحيح في صباه فقد كان ﷺ موفقاً لذلك ولذا لم يعبد عليه الصلاة والسلام صنماً أو يراد بإغنائه ما كان بعد البعثة ثم فصّل سبحانه على ذلك الترتيب فجعل عدم قهر اليتيم في مقابلة إيوائه تعالى له عليه الصلاة والسلام في يتمه، وعدم زجر السائل طالب العلم والمتعلم منه في مقابلة هدايته له، والتحدث بالنعمة في مقابلة الغنى وإن كانت النعمة شاملة له ولغيره. وآثر سبحانه ﴿**فحدث**﴾ على «فخبر» قيل ليكون ذكر النعمة عليه الصلاة والسلام حديثاً لا ينساه ويوجده ساعة غب ساعة والله تعالى أعلم. وندب التكبير عند خاتمة هذه السورة الكريمة وكذا ما بعدها إلى آخر القرآن العظيم فقد أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق أبي الحسن البزي المقري قال: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على إسماعيل بن قسطنطين فلما بلغت ﴿**والضحى**﴾ قال: كبِّر عند خاتمة كل سورة حتى تختم فإني قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت ﴿**والضحى**﴾ قال: كبِّر حتى تختم، وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك وأخبره أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أمره بذلك وأخبره أن أبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه أمره بذلك، وأخبره أن النبي ﷺ أمره بذلك وكان ذلك منه عليه الصلاة والسلام فرحاً بنزول الوحي بعد تأخره وبطئه حتى قيل ما قيل هذا وعلى ذلك عمل الناس اليوم والحمد لله رب العالمين.